



الفصل الأول
ازدهار الحياة الثقافية
والمؤسسات التعليمية

obeikandi.com

الفصل الأول

ازدهار الحياة الثقافية والمؤسسات التعليمية

أولاً: عوامل تقدم الحياة الثقافية:

١ - اهتمام أهل إقليم الصغد بالعلم

حث الإسلام على طلب العلم ودعا إلى تحصيله، وجاءت أول الأوامر الإلهية التي تلقاها الرسول ﷺ تحض على العلم وفضله، فافتتح رب العزة وحيه للرسول بقوله "اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم" (١) وقال عز وجل "شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم" (٢) "وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً" (٣).

رفع الإسلام الحثيف من قدر العلم والعلماء وخص الله تعالى العلماء بالعديد من الآيات التي ترفع من قدرهم وتجلبهم. ومن تلك الآيات قوله تعالى "قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب" (٤) "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير" (٥) "وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون" (٦)

(١) العلق: آية ١-٥

(٢) آل عمران: آية ١٨

(٣) النساء: آية ١١٣

(٤) الزمر: آية ٩

(٥) المجادلة: آية ١١

(٦) العنكبوت: آية ٤٣

"وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا" (١) تعددت الآيات القرآنية التي تشيد بالعلم وترفع قدره، ونوه في مواطن كثيرة بمنزلة العلماء الرفيعة وأهمية العلم وطلبه. وورد العلم ومشتقاته في نحو تسعمائة موضع في القرآن الكريم، ويكفي تعظيم الله للعلم أن يكون من اسمائه الحسنی: عالم، عليم، علام (٢).

نرى من خلال آيات القرآن الكريم ما للعلم والعلماء من أهمية كبيرة في الدعوة إلى الله والتحرر من عبودية ما سواه، ومن ثم فأهل العلم هم مصابيح الدجى وأعلام الهدى وسادة البشر وخيار الأمم الذين فهموا غرض الباري تعالى منهم، وعرفوا الغاية المنصوبة لهم (٣).

حث رسول الله ﷺ على طلب العلم وبين منزلة العلماء في قوله ﷺ "من سلك طريقاً يطلب به علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة" (٤). وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم (٥) "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين" (٦) وقوله ﷺ: "إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا. وإن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يترك عالماً اتخذ الناس رؤساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا" (٧) والأحاديث الشريفة الدالة

(١) طه: آية ١١٤

(٢) رحيم كاظم محمد الهاشمي وعواطف محمد شنقارو: الحضارة العربية الإسلامية، القاهرة، ص ١٤.

(٣) أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي: طبقات الأمم، ص ١٢

(٤) البخاري: صحيح البخاري، مج ١، دار مطابع الشعب، ص ٢٦، ٢٧

(٥) ابن ماجه: سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ج ١، ط ٣، دار الريان، ص ٨١.

(٦) البخاري: المصدر نفسه، ص ٢٧

(٧) مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٦، مج ٨، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٢٢١-٢٢٤.

على فضل العلم والتعلم كثيرة وكلها مصابيح تضيء للمسلمين معالم الطريق .
ولم يفرق الإسلام في حرصه على التعليم بين الأبناء والبنات فقال ﷺ
" طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة " (١) .

هكذا أقبل المسلمون الأوائل على العلم بدافع من إيمانهم واستجابة
لدعوة القرآن الكريم لهم ، رغبة منهم في أن يساعدهم علمهم هذا على
التعمق في إيمانهم والتقرب إلى ربهم ، مما يمكن أن يطلق عليه الإيمان يدعو
إلى العلم كما أن العلم يدعو إلى الإيمان (٢) فكان من الطبيعي أن يهتم أهل
الصغد بتشجيع العلم والعلماء ، فهم أهل حضارة عريقة ورثوا الحضارة
الفارسية وتأثروا بالحضارة الصينية (٣) . واشتهر أهل مدن الصغد بميلهم إلى
العلم وتشجيعه وشغفهم الدائم بالاطلاع والدراسة وحبهم للرحلة في سبيل
العلم ، حتى صار الإقليم قبلة يؤمها العلماء ويقصدها الأدباء من شتى البقاع .

كانت سمرقند عاصمة الصغد ذات أهمية عظمى إذ كانت مركزاً إسلامياً
وعلمياً قامت بتأدية رسالة الإسلام وخدمته على أحسن وجه ، وكان لعلمائها
أفضل نصيب في نشر العلوم الإسلامية في ربوع الأرض ، ويكفي لفخرها
وقضائها أنها زخرت بالكثير من العلماء الكبار (٤) أمثال الفقيه أبي حفص نجم
الدين عمر بن محمد النسفي السمرقندي (ت ٥٣٧هـ / ١١٤٢م) (٥) صنف في

(١) ابن ماجة: المصدر نفسه، ص ٨١ .

(٢) بول غليونجي: موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، ج١ ، مؤسسة المعارف،
بيروت، ص ٥

(٣) Saunders, The History of the Mongol Conquests, p72

(٤) حسين مؤنس: المساجد، الكويت، ١٩٨١م، ص ٢٨٣ .

(٥) Goldziher, A Short History of Classical Literature, Translated by Joseph Desomog-
yi, Germany, 1966, p53. Paul , The Histories of Samarqand , Studia Iranica , Tome,

شتى العلوم، فى التفسير والحديث والفقہ^(١)، والفقيه المناظر أبى الحسن على بن موجود بن الحسين بن الحسن بن محمد بن إبراهيم بن العباس النظرى الكشاني (ت ٥٥٧هـ/ ١١٦١م)^(٢)، فضلا عن أحمد بن عمر بن على العروضى السمرقندى مصنف كتاب مجمع النوادر المشهور بجهار مقالة - المقالات الأربع - وهو من كُتاب القرن السادس الهجرى^(٣)، وظهير الدين محمد بن على السمرقندى الكاتب صاحب كتاب سندباد نامه^(٤)، ونجيب الدين السمرقندى الطبيب المشهور (ت ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م) من مصنفاة الأدوية المفردة، وأصول التراكيب فى الطب، والأسباب والعلامات^(٥).

(١) ابن قطلوبغا: تاج التراجم فى من صنف من الحنفية، تحقيق إبراهيم صالح، بيروت، ١٩٩٢م، ص ١٦٣.

(٢) السمعاني: التحيير فى المعجم الكبير، تحقيق منيرة ناجى سالم، ج١، بغداد، ١٩٧٥، ص ٥٩٢.

(٣) كيانشوش مايلى: نظرى اجماعى بر تاريخ أدبيات فارسى به انضمام كتابشناسى كزیده، متون أدب فارسى از قرن چهارم تا قرن چهاردهم هجرى، تهران، ١٣٧٣، ص ٢٦.

Morrison , History of Persian Literature from the Beginning of the Islamic Period to the Present day , Brill , 1981, p14. Mousavi with Hillenbrand, Mousleums of Poet and Mystics, Islamic Period, vol.2, London , 2001, p195. Arbery, Three Persian poems Iran , Journal of the British Institute of Persian studies , vol.2, 1964, p6.

(٤) محمد عوفى: لباب الألباب، تعليق سعيد نفيسى، ١٣٣٥، ص ٨٦.

Davidovich , The Karakhanids History of civilization of central Asia , vol.4 , p133

(٥) أحمد بيرشك: كارنامه بزرگان إيران، ١٣٤٠، ص ٣٧٥. إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين أسماء المؤلفين وأثار المصنفين، ج٢، أستا نبول، ١٩٥٥م، ص ١١٠.

Martin Levey, Early Arabic Pharmacology , An Introduction Based on Ancient and Medieval Sources Belgium, 1973, p35

٢ - تشجيع الحكام للعلم والعلماء

شجع الخلفاء والسلاطين ورجال الدولة أهل العلم وأكرمهم، واعتبروا أنفسهم حماة ورعاة للعلم والثقافة، وأن من واجبهم تشجيع العلماء وتوفير أسباب الراحة والحوار العلمي لهم ليساهموا في تقدم الأمة الإسلامية^(١).

اهتم السلاجقة بالعلم والعلماء، فكان السلطان ملكشاه والوزير نظام الملك^(٢) يعتبران من أنشط حكام السلاجقة في رعايتهما للعلم وأصحابه^(٣)، وبذل نظام الملك جهدا واضحا في تشجيع العلماء والأدباء، وكان محبا لأهل العلم، كثير الإحسان إليهم حتى أنه جعل رواتب ثابتة لاثني عشر رجلا من رجال العلم في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية^(٤) وكانت مجالسه عامرة بالفقهاء والعلماء والأدباء، وكان نافذا بصيرا، فمن تفرس فيه صلاحية الولاية ولاه، ومن رآه مستحقا لرفع قدره رفعه، ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه ورتب له ما يكفيه حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره^(٥)، ويؤكد ذلك موقفه مع

(١) رحيم كاظم محمد الهاشمي وعواطف محمد شنقارو: الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٥٨.

(٢) نظام الملك: هو الحسن بن علي بن إسحاق وزير السلطان ألب أرسلان وابنه السلطان ملكشاه، ولد بطوس ٨٠٨ هـ / ١٧٠١ م، وتآدب بأداب العرب، وقرأ القرآن والحديث واللغة والنحو، وترقى حتى وصل إلى منصب الوزارة، وكانت أيامه دولة أهل العلم، اغتاله ديلمى من الإسماعيلية على مقربة من نهاوند سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م. ميرخواند: روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلي، القاهرة، ١٩٨٨ م، ص ٢٦٥. مصطفى صدرى: شرح حال رجال ومشاهير نامى إيران، جاب أول، تهران، ١٣٧٤، ص ٢٤٨.

(٣) حسين أمين: تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٢٧٥.

(٤) محمد مسفر الزهراني: نظام الوزارة في الدولة العباسية، مؤسسة الرسالة. بيروت، ١٩٨٠ م، ص ١٨٩. مصطفى صدرى: المرجع نفسه، ص ٢٥٥.

(٥) البندارى: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٥٩. السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق=

أبى القاسم على بن المظفر بن زيد بن حمزة بن محمد العلوى الحسينى بن أبى يعلى الدبوسى (ت ٤٨٢هـ / ١٠٨٩م) الذى كان من كبار أئمة الشافعية متوحدا متفردا فى الفقه، ولاء الوزير نظام الملك التدريس بنظامية بغداد بعد نجاحه أغلب الظن فى المناظرة التى عقدت بينه وبين أبى المعالى الجوينى إمامه فى أصبهان وتفوقه فيها على منافسه^(١).

بينما كان نظام الملك يقضى مع العلماء غالب نهاره، فقيل له إن هؤلاء شغلوك عن كثير من المصالح، فقال: "هؤلاء جمال الدنيا والآخرة، ولو أجلستهم على رأسى لما استكثرت ذلك"^(٢) وكان عبد الله بن أحمد بن السمرقندى (ت ٥١٦هـ / ١١٢٢م) من كبار المحدثين وأفاضل المتقنين والأدباء، كان يقرأ للوزير نظام الملك على الشيوخ ويفيد عنهم^(٣).

جدير بالذكر أن نظام الملك كان بعيد النظر، فكان يعلم حق العلم وما لرجال العلم من أثر كبير فى المجتمع بوجه عام وفى صفوف العامة بوجه

=محمود محمد الطناحى وعبد الفتاح محمد الحلوى، ج٤، القاهرة، ١٩٦٤م، ص٣١٣.
نظام الملك: سياست نامه، ترجمة السيد محمد العزاوى، دار الرائد العربى، ص٥٠. عبد
المجيد بدوى: التاريخ السياسى والفكرى للمذهب السنى، ط٢، دار الوفاء، ١٩٨٨م،
ص١٨٠.

(١) ابن الاثير: اللباب فى تهذيب الأنساب، ج١، ص٤٩٠. ابن تغرى بردى: النجوم
الزاهرة، ج٥، ص١٢٩. ابن الجوزى: المنتظم، ج٩، ص٥٠. الذهبى: تاريخ
الإسلام، ج٣٣، ص٩٢، ٩١. الذهبى: سير أعلام النبلاء، ج١٩، ص٩١ - ٩٣.
السبكى: طبقات الشافعية الكبرى، ج٥، ص٢٩٧، ٢٩٦. ابن الصلاح الشهرزورى:
الفقهاء الشافعية، تحقيق محبى الدين على نجيب، ج٢، بيروت، ١٩٩٢م، ص٨١٨. ابن
كثير: طبقات الفقهاء الشافعيين، تحقيق أحمد عمر هاشم ومحمد زينهم، ج٢، ١٩٩٣م،
ص٤٨٣.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢، ص١٤٠.

(٣) الذهبى: المختصر المحتاج إليه للديبى، ج١، بيروت، ١٩٨٥م، ص٩.

خاص، وبتقرب نظام الملك إلى العلماء وتقريبهم إليه، يكون بذلك كسب مودتهم ورضاهم، وهذا يعنى أنه امتلك السلاح القوى المؤثر الذى ضمن له عامة الناس، فخطباء المساجد وأئمة الصلاة والوعاظ والمدرسون كانوا ألسنة تلهج بذكر نظام الملك وأعماله، وتعمل على نشر ما يقربه ويحييه إلى الناس^(١) ومن ثم امتاز عصر نظام الملك بوفرة علمائه وأدبائه وشعرائه وانصرفوا إلى تأليف الكتب ونظم الأشعار فى مدحه والإشادة بفضله، وهذا بالطبع ساعد على رواج سوق العلم وازدهار الثقافة فى العصر السلجوقى . هكذا تمتع العلماء بمكانة كبيرة فى عهد السلاجقة وخاصة ملكشاه ووزيره نظام الملك .

وكان من عادة السلاجقة أن يسيروا خلف الموتى مطأطئو الرؤوس حتى إذا ما واروه التراب ارتدوا من أجله الملابس السوداء وشارات الحداد، وتخرج الجنائز ومعها الطبول والنوائح، وخاصة عند وفاة رجال العلم^(٢)، ومنهم على سبيل المثال الإمام أبو طاهر عبد الرحمن بن أحمد بن علك الساوى الشافعى (ت ٤٨٤هـ / ١٠٩١م) أحد أئمة الفقه المشهورين، تفقه بسمرقند وصحب عبد العزيز النخشبى وأخذ عنه علم الحديث، رحل فى طلب العلم إلى العراق، وشيع نظام الملك جنازته وجمع من الأكابر، قال شيوخ عصره لم ير فقيه فى وقته انصف منه^(٣) .

وكذلك كان السلطان سنجر يحترم علماء الدين احتراماً كبيراً ويتقرب إليهم، ويميل إلى الزهاد، ويجمع حوله الشعراء ويغدى عليهم، فأزداد عدد

(١) حسين أمين: تاريخ العراق الاقتصادى، ص ٢٧٦.

(٢) محمد محمود إدريس: رسوم السلاجقة، دار الثقافة، ١٩٨٣، ص ١٦٠.

(٣) الاسنوى: طبقات الشافعية، ج١، دار الكتب العلمية. بيروت، ١٩٨٧م، ص ٣٣١.

٣٣٠. ابن الجوزى: المنتظم، ج٩، ص ٥٩، ٥٨. الذهبى: تاريخ الإسلام، ج ٣٣،

ص ١٢٨، ١٢٧. النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، تحقيق يوسف الهادى، مؤسسة

الطباعة والنشر، ١٩٩٩، ص ٣٦٤.

الأدباء من كتاب الشعر والنثر^(١) وتم خلال عصره تأليف عدد كبير من أمهات الكتب، كما عاصره عدد من كبار شعراء سمرقند أمثال عمق البخارى (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م)، ونظامى عروضى السمرقندى صاحب كتاب جهار مقاله، وسوزنى شاعر الهجاء، ورشيدى، وشطرنجى السمرقندى^(٢).

اهتم خوارزمشاه محمد بن تكش (٥٩٦ - ٦١٧ هـ / ١١٩٩ - ١٢٢٠م) بتشجيع العلم والعلماء وأسبغ رعايته عليهم، فقرب إليه الإمام فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين الرازى (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩م) نزيل سمرقند، ورفع منزلته وأسنى رزقه^(٣).

حذا حكام الأقاليم وكبار رجال الدولة وبالأخص القراخانيون حكام إقليم الصغد فى العصر السلجوقى حذو السلاطين فى تشجيع العلم والعلماء، فكانوا يجزلون العطاء للعلماء، كما أحاطوا أنفسهم بنخبة من الأدباء والشعراء الذين نظموا القصائد لمدهم، ولم يقف دورهم عند حد التشجيع بل كان من بين حكام وأمراء هذه الأسرة من نبغ فى الأدب والشعر، ومنهم الأمير على بورى تكين، كان من أشهر الشعراء فى القرن الخامس الهجرى، ومن مصنفاته ترجمان البلاغة وحدائق السحر، وكان والده بورى تكين أبو إسحاق إبراهيم بن نصر حاكما على سمرقند وبخارى^(٤).

(١) الراوندى: راحة الصدور، ص ٢٦٠. أحمد كمال الدين حلمى: السلاجقة، ص ٥٥.

فخرى هروى: تذكرة روضة السلاطين، تصحيح خيامبور، تبريز، ١٣٤٥، ص ١٤.

(٢) براون: تاريخ الأدب العربى فى إيران، ص ٣٧٣. ذبيح الله صفا: دور نمائى از فرهنگ

ایرانی و اثر جهانی آن جلوه هائى از هنر ایران در تمدنهاى ديكر، تهران، ١٣٧٥،

ص ١٢٤. رضا مصطفوى سبزوارى: سهم زبان فارسى و فارسى زبانان در تمدن جهانى،

مجلة اشنا، شماره سيزدهم، سال سوم، ١٣٧٢، ص ٥٢.

(٣) القفطى: أخبار العلماء باخبار الحكماء، القاهرة، ص ١٩٠.

(٤) ذبيح الله صفا: تاريخ أديبات در إيران، جلد ٢، ص ٨. ذبيح الله صفا: دور نمائى

از فرهنگ ایرانى و اثر جهانی آن جلوه هائى از هنر ایران در تمدنهاى ديكر، ص ١٢٤.

اشتهر طمغاج خان إبراهيم (ت ٤٦٠هـ/١٠٦٧م) بتدينه الشديد، وكان والده نصر من الزهاد، حاكما على سمرقند، ولما مات قام مقامه ابنه طمغاج هذا الذي اشتهر بشدة ورعه، فكان لا يأخذ مالا من أحد حتى يستفتى الفقهاء^(١)، وبلغ من توقيره لرجال الدين أنه لما قال له الخطيب أبو شجاع أحد سلاطة العلويين: " أنت لا تصلح للملك " أغلق الخان أبواب قصره وعزم على التنازل عن العرش، ولكن الأهالي أفلحوا في إقناعه بأن الخطيب أخطأ، وأن ألفاظه تتعارض مع ما يبذله الخان من جهد من أجل رعيته^(٢). كما حرص طمغاج خان على إرضاء الخليفة العباسي، فكان يرسل كل سنة رسولا إلى الخليفة القائم بأمر الله، وحصل على ألقاب من دار الخلافة، منها عماد الدولة وتاج الملة^(٣)، واتجهت عناية طمغاج خان إبراهيم منذ البداية إلى تثبيت قواعد النظام والأمن بأراضيه، فكان أدنى اعتداء على أملاك الغير يلقي جزاء صارما، كما اتجهت عناية طمغاج خان إلى الأدب وخاصة الشعر^(٤).

وكان السلطان شمس الملك نصر بن إبراهيم بن نصر (ت ٤٧٢هـ/١٠٨٠م) صاحب بلاد ما وراء النهر من أفاضل الملوك علما ورأيا وحزما وسياسة. درس الفقه في الدار الجوزجانية، وأملى الحديث وخطب على منبرى سمرقند وبخارى، وكان فصيحاً^(٥)، وكان يقدر العلماء ويحترمهم

(١) ابن الفوطى: مجمع الآداب، مج ٢، طهران، ١٩٩٥م، ص ٨. عبد العظيم رضايى: تاريخ ده هزار ساله إيران، از سلسله غزنويان تا انقراض صفويه، جلد ٣، جاب بنجم، جاب اقبال و مروى، ص ٥٢.

(٢) بارتولد: تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، ص ٤٥٩.

(٣) ابن الفوطى: تلخيص مجمع الآداب فى مجمع الألقاب، تحقيق مصطفى جواد، ج ٤، دمشق، ١٩٦٢، ص ٦٥٠.

(٤) محمد كامكار بارسى: رباعى ورباعى سرايان، تهران، ١٣٧٢، ص ١٦٨.

(٥) الاسنوى: طبقات الشافعية، ج ٢، ص ٢٢٤. الصفدى: الوافى بالوقيات، ج ٢٧، بيروت، ١٩٩٧، ص ٤٩. الزركلى: الأعلام، ج ٨، ط ٧، دار العلم-بيروت، ١٩٨٦، ص ٢٠.

ويجزل لهم العطاء ويقربهم إليه، فكان يجلس عمر الخيام معه على سرير الملك إجلالا لعلمه وتشريفا للعلم في شخصه^(١).

وبلغت الدولة في عهد الخضر الذي خلف أخاه شمس الملك سنة (٤٧٣هـ/ ١٠٨١م) أقصى درجات الرخاء وامتد سلطانه على جميع بلاد ما وراء النهر، واتصف حكمه بالعدل وكان راعيا للشعراء مجزلا العطاء لهم. ومن الشعراء الذين قاموا بمدحه وبلغوا شهرة عظيمة في بلاطه عمعق بخارائي، وسيد الشعراء رشيدى سمرقندى، ونجيبى فرغانى، وساغر جى^(٢).

كذلك كان قلج طمغاج خان محبا للعلم والعلماء، ألفت باسمه بعض الكتب، منها "تاريخ ملوك تركستان" لمجد الدين محمد بن عدنان، و"سندباد نامه" لبهاء الدين الظهيرى^(٣) ونال هذا الحاكم من مدائح السوزنى ما لم ينله ممدوح آخر، ويبدو أن الصلة بينهما كانت قوية جدا، إذ مدحه بما يزيد عن خمس عشرة قصيدة مدحية^(٤).

(١) محمد غريب جودة: عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية فى العلوم الطبيعية والطب، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ١٨٦.

(٢) سعيد نفيسى: تاريخ نظم ونثر در إيران، جلد أول، ١٣٤٤، ص ٩٧، ٩٦. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد ٢، ص ٩. ذبيح الله صفا: دور نمایی از فرنك ایرانی و اثر جهانی آن جلوه هائی از هنر ایران در تمدنهاى ديكر، ص ١٢٤. ذبيح الله صفا: عمعق بخارائي، مجلة مهر، شماره ٤، سال سوم ١٣١٤، ص ٤٠٥. رضا مصطفوى سبزواری: سهم زبان فارسى و فارسى زبانان در تمدن جهانى، مجلة آشنا، شماره سيزدهم، سال سوم، ١٣٧٢، ص ٥٢.

(٣) العروضى السمرقندى: چهار مقاله، ص ١٤٤. محمد كامكار بارسى: رباعى ورباعى سرايان، ص ١٦٨.

(٤) محمد محمد يونس: السوزنى السمرقندى وشعره الجاد، دراسة تحليلية نقدية، ط ٢، القاهرة، ١٩٨٩، ص ٣٩.

ومما يجدر الإشارة إليه أن رعاية العلم والعلماء لم تكن قاصرة على الحكام وحدهم، بل كان للقضاة دورهم البارز، فكان القاضي أبو الحسن علي بن الحسين بن محمد السغدّي إماماً فاضلاً مناظراً. سمع جماعة من العلماء وتوفى سنة (٤٦١هـ / ١٠٦٨م)^(١) ومحمد بن أحمد بن الفرج أبو منصور بن الدقاق الوكيل - المحامى - بباب القضاة سمع الحديث بإفادة خاله محمد بن ناصر بن أحمد بن محمد بن المحاملى وعبد الله بن أحمد بن السمرقندى، وحدث عنهما وكان ثقة صحيح السماع توفى سنة (٥٧٥هـ / ١١٧٩م)^(٢).

هكذا حظيت مدن إقليم الصغد بعدد وافر من الشعراء المادحين، وكان جزء كبير من قصائدهم مرتبطة بخاقانات ما وراء النهر وخصوصاً الخاقان العظيم خضر بن إبراهيم .

وكانت اللغة العربية فى المرتبة الأولى من الناحية الأدبية حتى أواخر القرن الثالث الهجرى. ثم أخذت القومية الفارسية تنهض، وتحاول أن تحى معها اللغة الفارسية الحديثة التى اعتمدت على اللغة العربية فى كثير من كلماتها واصطلاحاتها التى تكتب أيضا بالحروف العربية^(٣).

بدأت اللغة الفارسية تنافس اللغة العربية فى التأليف وسار الأدب الفارسى بجانب الأدب العربى^(٤)، ومع ذلك ظلت اللغة العربية فى مدن

(١) السمعاني: الأنساب، ج٣، ص٢٥٩.

(٢) الذهبى: المختصر المحتاج إليه للديبشى، ج١، ص٩.

(٣) محمد نور الدين عبد المنعم: دراسات فى الشعر الفارسى حتى القرن الخامس الهجرى،

القاهرة، ١٩٧٦م. ص١٤. نور الدين آل على: دروس اللغة والأدب الفارسى، دار

الثقافة، القاهرة، ١٩٧٨، ص١٦.

Frye, The Golden age of Persia,,p232

(٤) محمود فهمى حجازى: اللغة العربية عبر القرون، ط٢، دار الثقافة، القاهرة،

١٩٧٨، ص٥٧.

إقليم الصغد في القرن الخامس الهجري لغة الثقافة والتأج الفكرى؁ وفى قوالها صب المفكرون ورجال الدين والفقهاء والكتاب والأدباء عصارة أفكارهم ونتاج قرائحهم دون مبالاة منهم بأصلهم الفارسى ووعيمهم القومى النابض. وظلت العربية كذلك لغة الكتابات السلطانية لدى كثير من البيوت الشرقية^(١).

وما أن ظهر السلاجقة على مسرح السياسة حتى التف حولهم بعض الشعراء والأدباء فنضج الأدب الفارسى فى فترة حكم السلاجقة ووصل إلى أوج ترقيه^(٢). فتعد فترة حكم السلاجقة من الفترات الأدبية الإيرانية المتقدمة من حيث كثرة الشعراء والكتاب الفرس؁ وأشهرهم السوزنى ورشيدى سمرقندى وعمسقى وظهيرى الدين سمرقندى وغيرهم الكثير^(٣). كما كثرت المؤلفات فى العلوم المختلفة باللغتين العربية والفارسية فى العصر السلجوقى. وكان العلماء والأدباء والشعراء يحرصون فى إنتاجهم على إظهار ثقافتهم الواسعة وإمامهم بأطراف من مختلف العلوم والفنون الرائجة فى عصرهم لإثبات نبوغهم وتفوقهم؁ وصارت هذه الظاهرة واضحة فى هذا العصر^(٤).

وفى الواقع كانت اللغة العربية واللغة الفارسية وعائين يحويان كنوز وثقافات الحضارة البشرية؁ واستخدم العلماء فى إقليم الصغد كلا من اللغة

=Julie Scott Meisami, Medieval Persian Court Poetry, New Jersey, 1987, p10. Bosworth,

The Heritage of Rulership in Early Islamic Iran, Iranian Studies, vol 6, 1978, p21

(١) نظام الملك: سياست نامه؁ ص ٣؁ ٤.

(٢) نصرت الله حكيم الهى: تاريخ ايران؁ از تأسيس طاهريان تا حملة مغول؁ ص ١٢٧.

(٣) ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران؁ جلد ٢؁ ص ٩. رضا مصطفى سبزوارى:

سهم زبان فارسى وفارسى زبانان در تمدن جهانى؁ مجلة اشنا؁ شماره سيزدهم؁ سال

سوم؁ ١٣٧٢؁ ص ٥٢.

(٤) عبد النعيم محمد حسين: إيران والعراق فى العصر السلجوقى؁ دار الكتاب المصرى.

القاهرة؁ دار الكتاب اللبنانى. بيروت؁ ١٩٨٢؁ ص ١٨٥.

العربية والفارسية في التأليف، وكثرت المصنفات العربية وخاصة من جانب علماء الدين في التفسير والفقه والحديث، كما كثرت المصنفات الفارسية في الأدب والشعر.

٢ - مكانة العلماء في المجتمع الصفدي

يعتبر العلماء في نظر الإسلام ورثة الأنبياء، ومن هذا المنطلق قاموا بدور كبير في المجتمع الإسلامي، فكانوا يتمتعون بالتجلة والاحترام التام. أما عن مستواهم المادى فيمكن اعتبارهم من أبناء الطبقة الوسطى ثم أن عدداً كبيراً منهم كانوا تجاراً بعيدين كل البعد عن وظائف الدولة، بل دأبوا على رفض العون منها والمشاركة في أعمالها. وهذا ما أعطاهم مكانة خاصة في المجتمع الإسلامي وأهلهم كى يلعبوا دور الوسيط بين الحاكم والمحكوم، وتمتع بعض علماء الصفد بمستوى معيشى مرتفع نتيجة لثرائهم، ومنهم الحسيني الإمام الحافظ الشريف المرتضى أبو المعالي محمد بن محمد بن زيد بن علي العلوي (ت ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م) نزيل سمرقند أملى بها وحدث، وكان يملك قريبا من أربعين قرية خالصة له، وفي كل قرية وكيل أمين من قبل رئيس سمرقند^(١) وكان كثير الإيثار، ينفذ في العام إلى جماعة من الأئمة الألف دينار والخمس مائة وأكثر إلى كل واحد، فربما بلغ ذلك عشرة آلاف دينار، ويقول هذه زكاة مالي^(٢).

(١) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج٤، دار إحياء التراث العربي، ص١٢٠٩. أبو عبد الله
الدمشقي الصالحى: طبقات علماء الحديث، ج٣، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت،
١٩٩٦، ص ٤٠٠، ٤٠٢.

(٢) الذهبي: العبر في خبر من غير، تحقيق أبي المهاجر محمد السعيد، ج٢، دار الكتب
العلمية. بيروت، ص٣٤٢. ابن العماد: شذرات الذهب، تحقيق لجنة إحياء التراث
العربي، ج٣، دار الآفاق الجديدة، بيروت ص٣٦٥. الياقعي: مرآة الجنان وعبرة
اليقظان، ج٣، ص١٣٣.

بينما ارتقى بعض العلماء فى السلم الوظيفى، كالدّهقان الرئيس أبى محمد عبد الرحيم ابن عبد الكريم بن أحمد الكرمينى (ت ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م) حدث بسمرقند، وهو شيخ لعبد الواحد بن إسرائيل الطرازى الذى سمع منه^(١). والقاضى الخطيب أبى الفتح ميمون بن طاهر بن عبد الله بن محمد ابن أحمد بن حاجب الكشانى الحاجى حدث عن أبيه (ت ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م)^(٢)، والقاضى الإمام أبى محمد عبد الله بن نصر بن على بن أبى القاسم بن نصر بن منصور الكرمينى (ت ٤٩٩هـ/ ١١٠٥م)^(٣)، والقاضى أحمد بن محمد ابن حميد بن الأشعث أبى نصر الكشانى السمرقندى، روى الحديث عن أحمد بن محمد ابن إسماعيل البخارى^(٤). كما عمل بعض العلماء كسفراء لدى حكامهم، فكان الحسين بن على بن أبى القاسم أبو على اللامشى من أهل سمرقند (ت ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م)، روى الحديث وتفقه وكان يضرب به المثل فى النظر، بعث رسولا من خاقان ما وراء النهر إلى دار الخلافة^(٥).

جدير بالذكر أن عددا غير قليل من العلماء والأدباء عاشوا فى رغد من العيش وذلك نتيجة لحرص الحكام أن يضموا أكبر عدد من الشعراء والكتاب والمفكرين فى شتى نواحي المعرفة، وأخذوا يجزلون لهم العطاء وذلك إما لرغبتهم فى العلم، أو لتزيين مجالسهم بالعلماء^(٦). فالعلم يزين الملوك أكثر

(١) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص ٣٧٥.

(٢) ابن الأثير: اللباب فى تهذيب الأنساب، ج ١، ص ٣٢٧.

(٣) النسفى: المصدر نفسه، ص ٣٤٨.

(٤) الذهبى: تاريخ الإسلام، ج ٣٠، ص ٨٧.

(٥) ابن الجوزى: المتظم، ج ١٠، ص ١٠.

(٦) عبد المجيد أبو الفتوح بدوى: التاريخ السياسى والفكرى للمذهب السنى، ص ١٧.

محمد نور الدين عبد المنعم: دراسات فى الشعر الفارسى حتى القرن الخامس الهجرى، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٣١.

مما يزين السوق، وإذا كان الملك عالما صار العالم ملكا^(١). هكذا عاش كثير من العلماء فى كنف هذه الدول فى رغد من العيش، فأنتجوا وأبدعوا وأثروا المكتبة الإسلامية بمصنفاتهم القيمة .

ومن أهم ما عمل على إشعال الجذوة العلمية وإمدادها بوقود جزل لا ينفد مناظرات^(٢) العلماء، فى المساجد وقصور الخلفاء والوزراء فى علم الكلام والفقه واللغة والنحو وغير ذلك من العلوم التى كان يشتد فيها الخلاف والجدل^(٣).

كان مجلس نظام الملك يزدحم بالعلماء وطلبة العلم ورجال الدين على اختلاف درجاتهم ونزعاتهم، وكانت المناظرات فى المسائل العلمية والمجادلات فى المشكلات الدينية تجرى أمامه وتحت إشرافه، وكان يأنس لها ويفيد منها

(١) ابن الطقطقا: الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر. بيروت، ١٩٦٦، ص٦.

(٢) المناظرة مشتقة من النظر والفكر. والمناظرة لا تقع إلا بين اثنين، من حيث إنها مفاعلة تقتضى وجود طرفين فى النظر، وهى فى نظر كثير من أصحاب المذاهب مرادفة للمجادلة*. وقد حوى القرآن الكريم بين دفتيه بذورا لتلك المناظرات. قال تعالى ' وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. يس: آية ٧٨ - ٧٩. وهنا يحكى مناظرة جرت بين النبى عليه الصلاة والسلام وبين أبى بن خلف .

* أحمد أمين مصطفى: المناظرات فى الأدب العربى إلى نهاية القرن الرابع، دار النمر للطباعة، القاهرة، ١٩٨٤، ص٧. بركات محمد مراد: منهج الجدل والمناظرة فى الفكر الإسلامى، القاهرة، ١٩٩٠، ص٤. مرتضى راوندى: تاريخ اجتماعى إيران، جلد هشتم، ١٣٧٤، ص٣٤٧.

(٣) حسن عبد الحميد ومحمود عرفة محمود: معالم تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، المطبعة الإسلامية الحديثة، القاهرة، ١٩٩٣، ص٢٢٨. شوقى ضيف: العصر العباسى الثانى، ط٦، القاهرة، ص١٢٢.

كما يستفيد منها الحاضرون. فإذا لمس في أحدهم نبوغاً قدمه على أقرانه^(١). وكانت المناظرة التي حدثت بين الفقيه أبي القاسم علي بن أبي يعلى المظفر محمد العلوي الدبوسي وأبي المعالي الجويني أمام الوزير نظام الملك في أصفهان، خير مثال على ذلك. ولما تفوق الدبوسي على منافسه عينه نظام الملك في نظامية بغداد، وبقي في منصبه ثلاث سنين إلى أن توفي سنة (٤٨٢هـ/١٠٨٩م)^(٢).

كما كان الإمام ركن الدين العميدى السمرقندى من كبار العلماء فاق كل مناظر في فصاحة الكلام وبلاغة المعاني وحسن التقرير، حكى أن زين الدين عبد الرحمن الكشى وهو من فحول العلماء جاء في محفل وكان العميدى حاضراً، فصب العميدى عليه من الملازمات حتى بهره، فقال الكشى: "قل واحدا واسمع جوابه"، فلما شرع الكشى فى الجواب كان العميدى يزيد عليه الجواب أيضاً. وكان العميدى إذ حضر مدينة حضر جميع الفقهاء عنده واغتنموا حضوره وقرأوا تصانيفه، وذات يوم عزم الذهاب إلى العراق فقالوا للسلطان: إن هذا الرجل عديم المثل زينة لهذه البلاد، وذكر القزوينى: إنه كان يباحث أحدا فنقل نقلا فأنكر المباحث ذلك النقل، فقام العميدى ودخل البيت حتى يأتى بالكتاب الذى فيه النقل فأبطأ الخروج، فدخلوا عليه فإذا هو مات، وذلك سنة (٦١٠هـ/١٢١٣م)^(٣).

شهدت أيضاً مدن إقليم الصغد خلال العصر السلجوقى مساجلات بين الشعراء تدل على سعة أفقهم وغزارة ثقافتهم، منها تلك المناظرة التي حدثت بين الشاعر رشيدى السمرقندى والشاعر مسعود سعد سليمان^(٤)، وتلك التي

(١) عبد الهادى محمد محبوبه: نظام الملك، مطبعة امون، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٢٦٢.

(٢) ألبكى: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٥، ص ٢٩٧.

(٣) القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٣٧، ٥٣٦.

(٤) أحمد حامد الصراف: عمر الخيام، بغداد، ١٩٣١م، ص ٧٨.

دارت بين السوزنى ومعاصريه وبخاصة فى مجال الهجاء، كما دارت كذلك مناظرات بينه وبين حميد الدين جوهرى مستوفى، هكذا حرص شعراء هذه الفترة على التزود بالثقافات المختلفة والتبحر فى العلوم^(١).

بلغت مجالس المناظرة فى سمرقند من البراعة فى المناقشة، والحرية فى إبداء الرأى والإصغاء لسماع الدليل ما تيسر عليه المجامع العلمية فى عواصم العالم المتحضر اليوم من جدل وحجاج وفق المنهج العلمى حتى ضارت المناظرة علما له قواعده وآدابه ومؤلفاته^(٢) وكثرت مجالس المناظرات بين الفقهاء والأدباء حتى لا تكاد تخلو مدينة كبيرة من عقد المجالس بين كثيرين من علمائها^(٣)، وكان لهذه المجالس آداب" معينة منها على سبيل المثال تحديد موعد الحضور وموعد الانصراف^(٤).

قصارى القول: إن هذه المجالس التى وجدت فى مدن الصغد أدت بما لا يدع مجالاً للشك إلى إثراء الحركة العلمية، ذلك أن العلماء بذلوا قصارى جهدهم، ليدعموا رأبهم بالأسانيد القوية ليحفظوا بتقدير الحاضرين، وكان للخلافات فى الرأى التى تحدث بين رجال العلم، واحتدام المناقشات واشتداد حرارة المبارزة الفكرية أثرٌ ' كبير' فى تقدم الحركة العلمية واكتساب الثقافة الإسلامية غنى وثناء.

٤ - الرحلة فى طلب العلم

دعا الإسلام إلى الرحلة فى طلب العلم وأخذ العبرة من أحوال الأمم، فقال تعالى " فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا

(١) محمد محمد يونس: السوزنى السمرقندى وشعره الجاد، ص ٦٢، ٦٣.

(٢) عبد الهادى محمد محبوبه: نظام الملك، ص ٢٦٢.

(٣) محمد كرد على: الإسلام والحضارة العربية، ج ٢، ط ٣، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٨٣.

(٤) يوسف محمود: الإنجازات العلمية فى الحضارة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت،

١٩٩٦، ص ٧٨.

قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ^(١). وقال ﷺ: تعلموا العلم، فإن تعلمه حسنة ودرسه تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وهو عند الله لأهله قربة، وإذا مات مؤمن وترك ورقة واحدة عليها علم تكون تلك الورقة يوم القيامة سترًا بينه وبين النار وأعطاه الله بكل حرف مكتوب عليها مدينة أوسع من الدنيا سبع مرات^(٢). وقال النبي ﷺ: اطلبوا العلم ولو بالصين^(٣). ومن خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع^(٤). وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود اتخذ نعليك من حديد وعصاك من حديد واطلب العلم حتى يتخرق النعلان وتنكسر العصا^(٥).

كانت الرحلة في طلب العلم من سمات الحياة العامة في إقليم الصغد في العصرين السلجوقي والخورزمي، وساعد على تيسير هذه الرحلة عدم وجود أى حواجز بين أقطار العالم الإسلامى، حيث كانت البلاد الإسلامية وحدة ثقافية واحدة^(٦) رغم التفكك والانحلال السياسى للدولة الإسلامية؛ فبفضل تنافس دول الإسلام تعددت البيئات الفكرية وأصبح لكل دولة إسلامية

(١) التوبة: آية ١٢٢.

(٢) محمد بن أبى بكر السمرقندى: شرعة الإسلام إلى دار السلام، تعليق سيد محمد منورينار، دلهى، ص ٢٧.

(٣) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ١، المكتبة التجارية الكبرى، د.ت، ص ٨، ٩.

(٤) النواوى: رياض الصالحين، ص ٣٩٥، ٣٩٦.

(٥) محمد بن أبى بكر السمرقندى: المصدر نفسه، ص ٣٨.

(٦) عبد البارى محمد الطاهر: خراسان وما وراء النهر، القاهرة، ١٩٩٤، ص ١٤٤. منيرة ناجى سالم: تاج الإسلام أبو سعد السمعانى وكتابه التحرير فى المعجم الكبير، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٤٣٠.

شهرة في ناحية خاصة من الثقافة، ولم تمنع الخصومات السياسية بين الدول التعاون الثقافي^(١).

ولاشك أن وحدة اللغة والدين في جميع أنحاء العالم الإسلامي ساعدت على نشاط التبادل الفكرى وانتقال العلماء^(٢). وللرحلة في طلب العلم فوائد جمة منها التمكن من الجوانب العلمية لاكتساب الفوائد والكمال بقاء المشايخ والتلقى عن الرجال^(٣)، ونشر العلم الذى حصله العالم واتساع الثقافة العامة، وكسب صداقات جديدة خالصة^(٤).

علاوة على ما للرحلة من أثر في تهذيب الطباع ورفى الآداب، ذلك أن كثرة ما يلاقه الرجل في السفر من المشاق يقوى في نفسه خلق الحلم، ومن فرائض الإسلام ما لا يؤدي إلا بوسيلة الرحلة، وهو حج البيت الحرام، فكان الحج من أهم العوامل التي دفعت بالمسلمين من كل فج عميق وعلى كل

(١) الحسين بن رشيق المالكي: لباب المحصول في علم الأصول، تحقيق محمد غزالي عمر جابى، ج١، ٢٠٠١، ص٣٨. عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ط٤، القاهرة، ١٩٧٨م، ص١٥٢. على حبيبة: العباسيون في التاريخ، مطبعة الإرشاد، القاهرة، ١٩٨٠، ص٢٦٤. محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام، ط٢، بيروت، ١٩٧٨م، ص١٩١.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: المدينة الإسلامية، ط٢، القاهرة، ١٩٨٢م، ص٨٧. منير الدين أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين، ترجمة سامى الصفار، السعودية، ١٩٨١، ص٦٧.

(٣) الشاشي: حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء، تحقيق ياسين أحمد إبراهيم درادكة، ج١، عمان، ١٩٨٨، ص٢١. عمر فروخ: عبقرية العرب في العلم والفلسفة، ط٣، بيروت، ١٩٦٩م، ص٩٣.

(٤) الخطيب البغدادي: الرحلة في طلب الحديث، تحقيق نور الدين عنتر، بيروت، ١٩٧٥، ص٢٥ - ٢٧. أحمد فؤاد الأهواني: التربية في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ص٦٣.

ضامر إلى الرحلة والانتقال، فالحج كان ولازال رحلة يتشوق إلى أدائها كافة المسلمين، وليس علماءهم أو فقهاؤهم فقط، ونتيجة لذلك أكتسبت رحلة الحج صفة تراثية شعبية^(١). وللرحلة إلى بيت الله الحرام في أشهر الحج جانب عظيم من معنى التجول في أقطار مختلفة حيث يلاقى فيها المسلم طوائف من أمم مختلفة الأجناس متباعدة البلاد^(٢).

ظهرت الحاجة للرحلة في طلب العلم في مدن الصغد منذ بداية الإسلام، حيث لم يكن للإسلام إلا معلم واحد هو رسول الله، وإلا مركز واحد هو مكان إقامته، مكة أولا، ثم المدينة ثانيا. وكان علماء مدن الصغد يتخذون الرحلة وسيلتهم لاستتمام العلم، وإكمال المعرفة، فينبغ العالم منهم حيث يبلغ فيثقف ثقافة بيئته ويتعلم علم أهله وبلده وإقليمه، ومهما كانت منزلة العلماء الذين تعلم عليهم فلا يتم له العلم إلا بالرحيل إلى المراكز العلمية المعروفة، وكانت متعددة منبثة في كل مكان في العالم الإسلامي في ذلك الوقت^(٣).

لا شك أن الشغف العلمى الشديد هو الذى دفع العلماء في مدن الصغد وسائر مدن العالم الإسلامى إلى الرحلة من بلد إلى بلد طلبا للعلم مهما تجشموا في ذلك من مشاق إيماننا منهم بان العلم لا وطن له ولا نهاية

(١) حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، عالم المعرفة. الكويت، ١٩٨٩، ص ٨٩. زكى محمد

حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٥، ص ٧.

نقولا زياده: الجغرافية والرحلات عند العرب، ط ٣، بيروت، ١٩٨٢، ص ١٣٨.

(٢) محمد الخضر حسين: اثر الرحلة في الحياة العلمية والأدبية، المجمع العلمى العربى،

ج ٣، دمشق، ١٩٥٤، ص ٣١٨.

(٣) الجوينى: البرهان فى أصول الفقه، ج ١، ط ٢، قطر، ١٩٧٩م، ص ٣٦، ٣٥. الجوينى:

الدرة المضية فيما وقع فيه الخلاف بين الشافعية والحنفية، تحقيق عبد العظيم الديب، قطر،

١٩٨٦، ص ٣٥.

له، وأن العالم مهما بلغ علمه وارتفع شأنه فسيجد عند غيره فوائد أو زوائد، قد لا تكون عنده^(١)، وفي هذا الصدد قال أبو أيوب الأنصاري: من أراد أن يكثر علمه، فليجالس غير عشيرته^(٢).

كان طلبة العلم في سمرقند أثناء رحلاتهم يدرسون ويتلقون عن الشيوخ ويجتمعون بالعلماء، وكان علماء اللغة يرحلون إلى البادية لجمع الألفاظ النادرة والمهجورة ومفرداتها^(٣)، ورحل الأدباء في أقطار الدول الإسلامية يأخذون عن أدبائها ويفيدون من شراحها ونقادها، وكان الفقهاء يرحلون بدورهم للتلمذ على أئمتهم، ومثلهم العلماء المختلفون في كل فرع من فروع العلم^(٤). وكان المحدثون أنشط الطلاب على الرحيل في طلب العلم وأصبرهم على عنائه^(٥). ولما كان الحديث النبوي هو المصدر الثاني للتشريع وكان منه بهذه المكانة فأعطاه العلماء غاية اهتمامهم وبذلوا من أجل الحديث وأسانيده كل ما في وسعهم، فكانت الرحلة في طلب الحديث من لوازم طريقة المحدثين ومنهجهم في التحصيل العلمي^(٦). قال الخطيب البغدادي في هذا الصدد: " ولو كان حكم المتصل والمرسل واحدا لما ارتحل كتبة الحديث،

(١) الجويني: الدرر المضية فيما وقع فيه الخلاف بين الشافعية والحنفية، ص ٣٦.

(٢) القرطبي: بهجة المجالس، وأنس المجالس، وشهد الذاهن والهاجس، تحقيق محمد مرسى الخولي، مج ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨١، ص ٤٣.

(٣) عبد الرحيم غنيمه: تاريخ دانشگاهای بزرگ اسلامی، ترجمة نوركساتي، تهران، ٢١٧٦، ص ٢٦٦.

(٤) شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني، ص ١٢٦.

(٥) حسن عبد الحميد ومحمود عرفة محمود: معالم تاريخ الحضارة العربية، ص ٢٨١. عبد الباري محمد الطاهر: خراسان وما وراء النهر، ص ١٤٦.

(٦) الخطيب البغدادي: الرحلة في طلب الحديث، ص ١٦.

وتكلفوا مشاق الأسفار إلى ما بعد من الأقطار، للقاء العلماء والسماع منهم في سائر الآفاق" (١).

كانت سمرقند مركز العلم وموطن العلماء، ونظرا لمكانتها العلمية قصدها طلاب العلم من شتى أنحاء العالم الإسلامي للقاء مشايخها والدراسة عليهم، فدرس البعض منهم في هذه المدينة، كما رحل عدد من طلابها إلى بلدان العالم الإسلامي الأخرى وقرءوا ودرسوا القرآن والحديث والأدب في تلك البلاد .

من علماء سمرقند الذين رحلوا إلى بلدان العالم الإسلامي الإمام الحافظ الرحال أبو محمد الحسن بن أحمد بن محمد بن قاسم بن جعفر السمرقندي (ت ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م) صحب الحافظ جعفر بن محمد المستغفري، وسمع ببخارى وبلخ ونيسابور، له كتاب بحر الأسانيد في صحاح المسانيد (٢). ومحمد بن محمد بن أيوب أبو محمد القطوانى (ت ٥٠٦هـ/ ١١١٢م) من أهل سمرقند سافر البلدان وسمع الكثير، وكان إماماً واعظاً له القبول بين الخواص والعوام (٣). وأيضاً أبو القاسم محمد بن ميمون بن محمد بن عبد الله الدبوسى (ت ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م) كان من كبار العلماء الرحالة، وكان شريك السمعاني في الدرس والرحلة إلى نيسابور (٤).

أما عن العلماء الذين وفدوا إلى سمرقند من أنحاء العالم الإسلامي

(١) الخطيب: الكفاية في علم الدراية، المكتبة العلمية، د.ت، ص ٤٠٢.

(٢) الذهبى: تذكرة الحفاظ، ج٤، ص ١٢٣٠، ١٢٣١. السيوطى: طبقات الحفاظ، تحقيق

على محمد عمر، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٤٥٠. الصيرفيى: تاريخ نيسابور المنتخب من

السياق، إعداد محمد كاظم المحمودى، قم المقدسة، ١٩٨٢م، ص ٢٨٢.

(٣) ابن الجوزى: المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، ج٩، ص ١٧٣، ١٧٢. سبط بن الجوزى:

مرآة الزمان، ج٨، القسم ١، حيدرآباد، الدكن، ١٩٥١، ص ٤٣.

(٤) أحمد تيمور باشا: ضبط الأعلام، مؤسسة الكتب، بيروت، ١٩٩٥م، ص ٨٤.

فهم كثيرون، منهم الإمام الرحال أبو طاهر محمد بن أحمد بن علي بن حمدان الخراساني الحافظ (ت ٤٤١هـ / ١٠٤٩م) سمع بسمرقند من أبي سعد السمعاني، وبنيسابور من أبي بكر الطرازي والحافظ أبي بكر الجوزقي، وبالري من جعفر بن فناكي، وبمرو من أبي الفضل محمد بن الحسين الحداد، وسمع منه أبو سعيد محمد بن أحمد النيسابوري^(١) ومنهم أبو القاسم حمد ابن علي ابن محمد الطبرستاني (ت ٤٤٢هـ / ١٠٥٠م) كان من كبار المحدثين، له رحلة واسعة إلى بلدان العالم الاسلامي، سمع بسمرقند من منصور الكاغدي، وسمع بالري من محمد بن علي القصار، وسمع السنن بالبصرة من الهاشمي، وسمع من أصحاب الأصم بنيسابور، وأنفق على أصحاب الحديث أموال كثيرة^(٢).

والإمام الحافظ الجوال أبو الوليد الحسن بن محمد بن عبد الرحمن البلخي (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م) سمع ببغداد ودمشق وبلخ ونيسابور وهراة، وطوف البلاد وحصل الأسانيد والغرائب ومات بسمرقند^(٣). والشيخ الإمام المحدث أبو مسلم عمر بن علي بن الليث الأصبهاني المفيد، الطواف (ت ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م) كان من كبار الرحالة سمع بسمرقند وبكش وبلخ، وغزنة ومرو^(٤). فضلا عن محمد بن محمد بن محمد أبو عبد الله، مجد الدين الختني (ت ٥٧٦هـ / ١١٨٠م) أحد علماء الحنفية، كان أبوه من ملوك ما وراء النهر، زهد وترك الملك وهاجر في طلب العلم إلى سمرقند وبخارى

(١) أبو عبد الله الدمشقي: طبقات علماء الحديث، تحقيق أكرم البوشي وإبراهيم الزبيق، ج٣، ط٢، بيروت، ١٩٩٦م، ص ٣٠٥.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٣٠، ص ٦٢، ٦١.

(٣) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج٣، ص ١١٥٥. السيوطي: طبقات الحفاظ، ص ٤٣٧. أبو عبد الله الدمشقي: المصدر نفسه، ج٣، ص ٣٥٢، ٣٥٣.

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٩، ص ٤٠٧.

وخراسان، فتنقه ثم رحل إلى البلاد الشامية والبلاد المصرية، وأقام بمصر ودرس بالمدرسة السوفية إلى أن مات بها^(١).

وأبو المظفر عبد الرحيم بن عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني (ت ٦١٧هـ / ١٢٢٠م) الفقيه الشافعي المحدث مسند خراسان، صحبه والده لسماع الحديث وطاف به بلاد خراسان وما وراء النهر وخاصة سمرقند وبخارى، كان مفتيا عارفا بالمذهب انتهت إليه رئاسة الشافعية ببلده، وختم به البيت السمعاني^(٢).

وما يجدر الإشارة إليه أن الرحلات في طلب العلم ارتبطت بالتجارة، حيث كان العلماء وطلاب العلم يخرجون في ركاب التجار مستخدمين الطرق التجارية في التنقل بين المدن والبلاد الإسلامية سعيا وراء العلم والمعرفة^(٣).

ولاشك أن لاهتمام سلاطين السلاجقة بتوفير الأمن خلال سير القوافل التجارية في بلاد العراق والمشرق، أثراً واضحاً في العناية بالطرق التجارية، فبنى السلطان ملكشاه منارة القرون من حوافر الغزلان بالكوفة وبنى مثلها في ما وراء النهر ليهتدى بها التجار أثناء سيرهم ليلاً، فأصبحت السبل في أيامه آمنة^(٤). كما بنى أحواض الماء على طريق الحجاز^(٥) كذلك اهتم سلاطين

(١) القرشي: الجواهر المضية، ج٣، ص٣٤٨. المقرئ: كتاب المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوى، ج٧، ١٩٩١، ص ٩١، ٩٢.

(٢) الذهبي: العبر في خير من غير، ج٣، ص١٧٤. ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٧٥، ٧٦. عبد الصاحب عمران الدجيلي: أعلام العرب في العلوم والفنون، ط٢، العراق، النجف، ١٩٦٦، ص ٢٨١، ٢٨٢. ناجي معروف: عروبة العلماء المنسويين إلى البلدان الأعجمية في خراسان، ج١، ص ٤٧٠.

(٣) Jonathan Karam Skaff, The Sogdian Trade Disapora in East Turkestan, Journal of the Economic and Social History of Orient, vol 46, no,4, 2004, p475.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢، ص١٤٢. المقدسي: الروضتين في أخبار الدولتين، ج١، دار الجليل، بيروت، ص٢٦. محمد محمود إدريس: تاريخ العراق والمشرق الإسلامي، ص١٩٩.

(٥) الراوندى: راحة الصدور، ص٢٠٥.

السلاجقة بتحسين الطرق وتأمينها من اللصوص^(١). واعتنى طمغاج خان إبراهيم حاكم سمرقند وما وراء النهر (٤٤٤ - ٤٦٠ هـ / ١٠٥٢ - ١٠٦٨ م) منذ البداية بتثبيت قواعد النظام والأمن بأراضيه، فكان يواجه بصرامة أى اعتداء يوجه إلى أملاكه الغير، فحدث ذات مرة أن كتب بعض اللصوص على باب قلعة سمرقند "نحن كالبصلة، لما تقطع تكبر رؤوسنا" فأمر الخان بأن يكتب تحت ذلك "وأنا كالبستاني كلما ارتفع لكم رأس اجثمته"^(٢).

أما عن أهم الطرق التي استخدمها التجار وطلاب العلم فهي: أولاً: طريق الحرير العظيم^(٣) يبدأ من بغداد إلى همدان، فقزوين، والرى ونيسابور، ومرو، وبخارى، وسمرقند ثم يتجه إلى الصين^(٤). وكان لطريق الحرير دور

(١) محمد محمود إدريس: المرجع نفسه، ص ٢٠٠.

(٢) Davidovich, The Karakhanids History of civilization of central Asia, vol 4, p128.

(٣) طريق الحرير العظيم: هو طريق تجارى قديم ربط بين الشرق والغرب، وجد منذ القرن الثالث قبل الميلاد، ولما كان الحرير الصينى أرقى البضائع التي تنقل عبر هذا الطريق وأغلاها ثمنًا. فان الجغرافى فيرديناند فون ريختوفن أطلق على هذا الطريق اسم طريق الحرير*. ويمتد طريق الحرير لمسافة خمسة آلاف ميل تقريباً**.

* أرجيه رفى فيريلوفسكى الاتصالات فيما بين القارات طريق الحرير، ترجمة محمد عزب، مجلة ديوجين، العدد ٨٨، مطبوعات اليونسكو، ص ٥٦.

** ايرين فرانك: طريق الحرير، ص ١٥.

Mildred Cable, The central Asian Buddhist, road to China. Journal of Royal Central Asian Society, vol.30, part 3, 1943,p275

(٤) بدر الدين الصينى: العلاقات بين العرب والصين، ج١، ١٩٥٠، ص ١١، ١٢.

Basil Gray , Treasures of Asia Persian Painting , Switzerland , 1977, p9 . Belyaev, Arabs , Islam and the Arab Caliphate , translated by Adolphe Gourevitch, Israel, 1969 ,p217. Walter Wallbank, Alastair, Scott, Civilization Past and Present , vol ,1. c3,

1954 , p199 . =

بارز فضلا عن كونه طريقا تجاريا كان يمثل حلقة الوصل بين حضارات البلاد في الشرق والغرب يربط بين ثقافات الشعوب بعضها ببعض^(١).

ثانياً: الطريق التجارى الذى يسير من المنطقة الواقعة عند مصب نهر السند نحو فارس ماراً بولاية سجستان ومنها نحو خراسان غرباً وبخارى وسمرقند شمالاً^(٢).

ثالثاً: الطريق التجارى بين بلاد الروس والمشرق عن طريق بحر قزوين، ومنه تنقل التجارة إلى بخارى وسمرقند ببلاد ما وراء النهر ومنها إلى الصين^(٣).

رابعاً: الطريق الملكى أو الذهبى بين سمرقند وبخارى^(٤). هكذا ساعد امتداد شبكة الطرق وأمنها على تيسير حركة تنقل العلماء وطلاب العلم فى ركاب التجار بين البلدان، ومن ثم انتشرت الحركة العلمية والنهضة الثقافية، أما وسائل النقل التى استخدمت فى هذه الطرق فهى الإبل والخيول والبغال،

=وكانت سمرقند من أهم المدن التى تقع على طريق الحرير .

Frye, The Heritage of Persia, California , 1993, p13. Gibb , The Arab Conquest in Central Asia , 1923, p5 .Harold Lamb , Cyrus the Great, New York , 1960, p168.

(١) Shahbazi ,The Silk Road , the Splendour of Iran , Ancient time, vol.1, London , (١) 2001,p516. Susan Whilfield with Ursula William, The Silk Road Trade , Travel war and faith , Hong kong ,2004, p13 .

(٢) هايد: تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ترجمة أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، ١٩٩٤م، ص٥٣

(٣) إبراهيم أيوب: التاريخ العباسى السياسى والحضارى، بيروت، ١٩٨٩، ص٢٤٥. محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص١٤٩ .

(٤) إيرين فرانك: طريق الحرير، ص١٥ .

John Lawton , Travel to Landmarks Samarkand and Bukhara , London ,1991,p31.

لكن الإبل استخدمت أكثر من غيرها لتحملها وصبرها على مشاق الأسفار البعيدة، وكان عدد جمال القافلة يصل إلى ما يقرب من خمسة آلاف جمل تخترق بلاد العالم من شرقه إلى غربه^(١).

خلاصة القول كانت الرحلة في طلب العلم من سمات الحياة العامة في مدن إقليم الصغد، بل وفي الدولة الإسلامية بأسرها، فأدى الاهتمام بالرحلة من أجل العلم إلى إثراء الحياة الفكرية والنهضة الثقافية.

٥- الإجازات العلمية

الإجازة لغة: إعطاء الإذن، لهذا المعنى أشار الفيروزآبادي بقوله: "أجاز له سوغ له، والإجازة في الاصطلاح إذن وتسويغ"^(٢). وهي أن يأذن الشيخ لغيره بأن يروى عنه مروياته أو مؤلفاته وكأنها تتضمن إخباره بما أذن له بروايته عنه، قال ابن رجب: "إن الذى استقر عليه العمل، وقال به جماهير أهل العلم من أهل الحديث وغيرهم، القول بتجويز الإجازة وإباحة الرواية بها"^(٣).

الإجازة مأخوذة من جواز الماء الذى تسقاه الماشية والحرث، يقال عنه استجزت فلاناً فأجازنى إذ أسقاك ماء لأرضك ولماشيتك^(٤)، كذلك طالب العلم يسأل العالم أن يجيزه علمه فيجيزه إياه، والطالب مستجيز والعالم مجيز، والإجازة إنما هي إباحة المجيز للمجاز له رواية ما يصح عنده أنه

(١) حسين على المسيرى: تجارة العراق فى العصر العباسى، الكويت، ١٩٨٢م، ص ٢٣٠. ول ديورانت: قصة الحضارة، ج٢، مج٤، ص ١٠٩.

(٢) الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ج٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨، ص ١٧٠.

(٣) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، تحقيق شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس، ج١، ط٩، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٥، ص ٢٦.

(٤) الخطيب البغدادي: الكفاية فى علم الدراية، ص ٣١٢. منيرة ناجى سالم: تاج الإسلام أبو سعد السمعاني وكتابه التحيير فى المعجم الكبير، ص ١٠٥.

حديثه^(١)، وبذلك فالإجازة إذن ورخصة تتضمن المادة العلمية الصادرة من أجلها، يمنحها الشيخ لمن يبيح له رواية المادة المذكورة فيها عنه، وتكون الإجازة بهذا المعنى طريقة من طرق نقل الحديث وتحمله من الشيخ إلى من أباح له نقل الحديث عنه^(٢).

وتطور نظام الإجازة منذ القرن الخامس الهجرى إلى حد بعيد، حتى صار الشيخ يجيز قبل وفاته جميع مسلمى عصره فى رواية الأحاديث التى كان يعرفها^(٣). وكان الشيخ يمنح الإجازة لطالبها بطريقتين: إحداهما الإجازة بالمشافهة، وثانيهما الإجازة التحريرية، وهى التى شاعت منذ العصر السلجوقى، على أن الإجازة الشفهية أقدم من الإجازة التحريرية^(٤)، واعتاد الشيوخ أن يكتبوا إجازاتهم على الكتاب الذى درسه الطالب على أيديهم، ثم حدث تطور فى الإجازات التحريرية حيث أصبحت مستقلة عن الكتاب، كما أصبحت مفصلة شتملة على طرق الرواية^(٥).

أما عن أنواع الاجازات فهى:

أولها: المناولة وهى أرفع ضروب الإجازة وأعلاها، وصفتها أن يدفع المحدث إلى الطالب أصلا من أصول كتبه أو فرعا مما كتبه بيده، ويقول له هذا الكتاب سماعى من فلان وأنا عالم بما فيه، فحدث به عنى، فإنه يجوز

(١) الخطيب البغدادي: الرحلة فى طلب الحديث، ص ٣٢٥.

(٢) عبد الله فياض: الإجازات العلمية عند المسلمين، بغداد، ١٩٦٧، ص ٢١.

Frye, The Golden age of Persia , p229

(٣) مريزن سعيد مريزن عسيري: الحياة العلمية فى العراق، ص ٢٥٠.

(٤) ملكة أبيض: التربية والثقافة العربية الإسلامية فى الشام والجزيرة، ص ٢٨٦.

(٥) عبد الله فياض: الإجازات العلمية عند المسلمين، ص ٢٧، ٢٤. مريزن سعيد مريزن

عسيري: المرجع نفسه، ص ٢٥٠.

للطالب روايته عنه، وتحل تلك الإجازة محل السماع عند جماعة من أئمة الحديث^(١).

والنوع الثاني: هو أن يدفع الطالب إلى الراوى صحيفة كتب فيها: إن رأى الشيخ أن يجيز لى جميع ما يصح عندى من حديثه، فيقول له الراوى بلفظه: أجزت لك كما سألت، أو يكتب له ذلك تحت خطه فى الصحيفة^(٢)، وكثر هذا النوع فى سمرقند، فعلى سبيل المثال ألتمس الظهير أبو بكر بن أحمد بن على السمرقندى (ت ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م) الإجازة من أبى حفص عمر بن محمد النسفى السمرقندى قائلا:

أيا مقتدى الأنام إذا العلا عمر وراك حفيظ الخلق من شبهة الضرر
أجز لأبى بكر بن أحمد مفضلا ويدل له بالأجر بالصفوة الكدر
جميع الذى صنفته وسمعته خذ صالح الدعوات فى ظلمة السحر
فكتب إليه أبو حفص عمر:
أجزت لسيدى وفريد عصرى أبى بكر بن أحمد ما ابتغاه
على شرط التحرز والتوقى وذكر بالدعاء كما حكاه
أجبت دعاءه فينا وفيه وفى الدارين ثم له مناه^(٣)

النوع الثالث: هو أن يكتب الراوى بخطه جزءاً من سماعه أو حديثاً، ويكتب إلى الطالب " إنى أجزت لك روايته بعد أن صححته بأصلى " ^(٤)

(١) الخطيب البغدادى: الكفاية فى علم الدراية، ص ٣٢٦. أحمد شلى: تاريخ التربية الإسلامية، ص ٢٥٠ عبد الله فياض: المرجع نفسه، ص ٣٤. ملكة أبيض: المرجع نفسه، ص ٢٨٦.

(٢) الخطيب البغدادى: المصدر نفسه، ص ٣٣٤. منير الدين أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين، ص ٦٤.

(٣) القرشى: الجواهر المضية، ج ٤، ص ١٠٤، ١٠٥.

(٤) الخطيب البغدادى: الكفاية فى علم الدراية، ص ٣٣٦. مريزن سعيد مريزن: الحياة العلمية فى العراق، ص ٢٥١.

ووجد هذا النوع في سمرقند ومثله السيد الإمام أبو الحسن محمد بن محمد بن زيد العلوي البغدادي (ت ٤٩٢هـ / ١٠٨٩م) نزيل سمرقند كان أفضل علوى في عصره له المعرفة التامة بالحديث وتميز بحسن التصنيف، حدث عنه أبو الفتح أحمد بن الحسين الأديب السمرقندي بالإجازة^(١). وأنشد لنفسه في الجواب عن الاستجازة في رواية الحديث:

وأخلى أجزت لكم سماعي	وما صنفت من كتب الحديث
إذا ما شئتُم فارووه عنى	كبيركم وذو السن الحديث
أجزت لكم ذى عقل ودين	يريد العلم بالطلب الخيـث
على شرط الإجازة فاحفظو	عن التصحيف والغلط الخيـث
فإنى عن وقوع السهو فيه	برىء معلن كالمستغيث
عليكم بالأناة لكل خطب	فقل وقوع سهو من مريث
وأوصيكم بتقوى الله	تالوا الفوز من رب مغيث ^(٢)

النوع الرابع: وهو أن يكتب المحدث إلى الطالب "أجرت لك جميع ما صح ويصح عندك من حديثي"^(٣).

النوع الخامس: وهو أن يأتي الطالب إلى الراوى بخبر، فيدفعه إليه،

(١) الذهبى: تاريخ الإسلام، ج ٣٢، ص ٣١٢، ٣١١. الصريفينى: تاريخ نيسابور المنتخب من السياق، ص ٦٣. ناجى معروف: مدارس قبل النظامية، مطبعة المجمع العلمى العراقى، ١٩٧٣م، ص ٥١.

(٢) الصريفينى: المصدر نفسه، ص ٦٣. ناجى معروف: مدارس قبل النظامية، مجلة المجمع العلمى العراقى، مج ٢٢، ١٩٧٣، ص ١٤٤.

(٣) الخطيب البغدادي: المصدر نفسه، ص ٣٤٥. أحمد شلبى: تاريخ التربية الإسلامية، ص ٢٥٠.

ويقول له: أهذا من حديثك؟ فيتصفح الراوى أوراقه ثم يقول له نعم، هو من حديثي، فيذهب به الطالب فيحدث به عنه من غير أن يستجيز منه^(١).

جدير بالذكر إن الإجازات العلمية فى مدن إقليم الصغد لم تقتصر على الحديث، بل تعدته إلى فروع العلم المختلفة من حديث ولغة وأدب وتاريخ، وجرت العادة خاصة فى العصر السلجوقى أنه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس يأذن له شيخه أن يفتى ويدرس، ويكتب له بذلك^(٢).

قصد سمرقند عدد من الطلبة والعلماء من البلدان الإسلامية، لسماع الحديث من علمائه، وحضور مجالس العلم والأدب واللغة والتاريخ فى مدارسها. وكان هؤلاء الطلبة يمكنون زما طويلا فى سمرقند للدراسة فلا يغادرونها حتى يحصلوا على الإجازات العلمية من علمائها، التى ترفع من شأنهم فى مجتمع أنظاره مشدودة إلى مهد الإسلام واللغة العربية^(٣).

ومن أهم علماء سمرقند الذين رحل إليهم للحصول على الاجازات العلمية على بن محمد بن إسماعيل بن على بن أحمد بن محمد بن إسحاق الأسييجابى السمرقندى المعروف بشيخ الإسلام (ت ٥٣٥هـ / ١١٤٠م) وهو من أسييجاب من ثغور الترك، سكن سمرقند، وصار المفتى والمقدم بها ولم يكن أحد بما وراء النهر فى زمانه يحفظ مذهب أبى حنيفة ويعرفه مثله، قال السمعانى: كتب لى بالإجازة بجميع مسموعاته، وقال صاحب الهداية: "اختلفت إليه مدة وحصلت من فوائده ومحافل النظر وشرفنى بالإطلاق فى

(١) الخطيب البغدادى: المصدر نفسه، ص ٣٤٦. مريزن سعيد مريزن: المرجع نفسه، ص ٢٥١.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ج ١٤، ص ٣٢٢. محمد غريب جودة: عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية فى العلوم الطبيعية والطب، ص ٤٩.

(٣) جعفر ماجد: فصول فى الأدب والثقافة، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ١٩٨٤، ص ١٣.

الإفتاء، وكتب لى بذلك كتابا بالغ فيه وأطنب ولم يكن يتفق لى الإجازة منه وأخبرنى عنه غير واحد^(١).

أما العلماء الذين وفدوا إلى مدن الصغد فكان منهم الشيخ أبو الفتح أحمد بن الحسين بن عبد الرحمن العبسى (ت. ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م) سكن قرية على بعد ثمانية فراسخ من سمرقند يقال لها فراب بسفح الجبل قدم سمرقند، وسمع أبا المعالى محمد بن محمد بن زيد الحسينى الحافظ، ولكن ضاع أصل سماعه، ووجد السمعانى له إجازة بخط أبى المعالى فقرأ السمعانى عليه قريبا من عشرة كتب من تصانيف أبى المعالى، ورجع إلى قرية فراب^(٢). وأبو محمد سراج الدين على بن عثمان الأوشى (ت. ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م)، ولد فى أوش من نواحى فرغانة، رحل فى طلب العلم إلى سمرقند، فدرس بها العلوم الشرعية على إمامين جليلين من علماء الخنفيه: أحدهما العالم محمد ابن عبد الحميد الأسمندى الذى سمع منه جامع الترمذى إجازة، والثانى محمد بن محمد بن زيد بن على بن موسى الشريف المرتضى أبو الحسن وأبو المعالى العلوى الحسنى، سمع منه كتاب الإقناع للمروزى^(٣).

خلاصة القول: أن الإجازة فضلا عن كونها طريقة من طرق نقل الحديث قد لعبت دورا هاما فى حفظ سلسلة السند وربطها بالمصدر الأول الذى أخذ عنه الحديث، ولم تقتصر مهمة الإجازة على حفظ سند الحديث بل ساعدت على حفظ سند الكتب التى لا تمت للحديث بصلة. كما تعد الإجازة من بين الوسائل التى تمدنا بمعلومات جغرافية وتاريخية عن مراكز العلم فى العالم الإسلامى وعن انتقال الأفراد إليها.

(١) السمعانى: التخيير فى المعجم الكبير، ج١، ص ٥٧٨. القرشى: الجواهر المضية، ج٢، ص ٥٩١، ٥٩٢

(٢) السمعانى: الأنساب، ج٤، ص ٣٥٣. ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج ٢، ص ٣٦٠

(٣) هشام نشابه: موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، ج٢، بيروت، ٢٠٠٤م، ص ٥٦٣.

٦ - أدوات الكتابة وحوانيتها الوراقين

مرت الكتابة في مدن الصغد وسائر البلاد الإسلامية بمراحل متعددة وطويلة وفقا لتطور المجتمعات البشرية، وتبعاً لوعي الإنسان للأمر وارتباطه بالواقع^(١)، فاستعمل الإنسان مواد كثيرة في الكتابة أقدمها الطين والحجارة، ثم لحاء الأشجار والعظام والجلود وسعف النخل، كما استعمل الحرير الأبيض غالى القيمة في الكتابة أيضاً، وتفاوتت الأمم في ذلك، فكتب أهل الصين على ورق يصنعونه من الحشيش، وكتب أهل الهند في خرق الحرير الأبيض، واستعمل الفرس الجلود المدبوغة من جلود البقر والغنم والوحوش، كما كتبوا على اللخام وهى حجارة بيض رفاق، والنحاس والحديد وغيرها^(٢).

بينما استعمل العرب الجلود واللخام والعصب وهو جريد النخل، كانوا يقشطون عنه الخوص ويكتبون في الطرف العريض، والكرانيف وهى الأصول التى تبقى في جذع النخلة بعد قطع العصب، والرق وهو ما يرقق من الجلد ليكتب فيه^(٣). وذكره الله سبحانه وتعالى "وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ"^(٤).

(١) خيال محمد فهدي الجواهرى: من تاريخ المكتبات في البلدان العربية، دمشق، ١٩٩٢، ص١٧.

(٢) محمد زيود: صناعة الورق والوراقة في بلاد الشام في العصر الفاطمي، المؤرخ المصري، كلية الآداب جامعة القاهرة، العدد ١٥، ١٩٩٥، ص١١.

(٣) سعد مرسى أحمد وسعيد إسماعيل على: تاريخ التربية والتعليم، مطبعة المجد، القاهرة، ١٩٧٢، ص ١٦٩، ١٧٠. محمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي: تاريخ الخط العربى وآدابه، ط٢، السعودية، ص٩٩. أحمد سعيد عبد الله: تاريخ التدوين ومواد الكتابة، آفاق الثقافة والتراث، السنة العاشرة، العدد ٤٠، ٢٠٠٣، ص١٤٥.

Gavin Hambly , Centraal Asia , London , 1969 , p68.

(٤) الطور: آيه - ٣ .

كان المصريون أول من كتبوا على سطح أوراق النباتات عندما استخدموا أوراق النخيل ثم طوروا استخدام النباتات بصناعة القراطيس كمادة للكتابة^(١) من نبات قصب البردى^(٢). وبذلك خطت الحضارة البشرية خطوة واسعة في تحسين مواد الكتابة، ولم تزل القراطيس تستعمل امتيازاً لها على غيرها^(٣)، وظل هذا النوع من الورق سائداً في مصر وغيرها من بلاد الدولة الإسلامية، حتى حل محله في أوائل القرن الرابع الهجري الكاغد السمرقندي^(٤)، وهو

(١) Helen Loveday, Islamic Paper , study of Ancient craft , 2001,p10

(٢) البردى هو الخوص ويعرفه أهل مصر بالفافر، وهو نبات ينبت في الماء، وله ورق كخوص النخل وله ساق طويلة خضراء*. ويبلغ طول نبات البردى عشر أقدام تقريباً، وسمكه من أسفله بوصتان، وبه أهداب كالشعر. وطريقة صناعة ورق البردى تتلخص في أنهم كانوا يقطعون طرفي الساق لعدم صلاحيتهما ويشقون الساق إلى شظيات، ويشقون الشظيات إلى أخريات أرفع منها، وتجفف في الشمس ثم تطحن وتدق بالغراء وتوضع طبقة فوقها أخرى تخالفها اتجاهها، ويدقونها بلطف فتترطح الأعواد ثم تكبس، وتجفف جيداً وتدهن بزيوت الشربين أو ما يقوم مقامه ليكتسب المرونة والليونة ثم يثقل فيصير ناعم الملمس حسن المنظر**.

* محمد العربي الخطابي: تنقيح مفردات ابن البيطار العشاب المالتقى من كتاب الجامع، بيروت، ١٩٩٠، ص ٥٩، ٦٠.

** عبد العزيز عبد الرحمن: تاريخ الطب والصيدلة والكيمياء عند قدماء المصريين، القاهرة، ١٩٣٩، ص ٥٥. محمد حمادة: مقدمة في تاريخ الكتب والمكتبات، بيروت، ١٩٩٦، ص ٢٥. خليل صابات: تطور صناعة الورق في مصر، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، مج ١٩، ج ١، ١٩٥٧، ص ٢٤٥.

(٣) إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري، بيروت، ١٩٨٩، ص ٢٤٣. ديمومين: النظم الإسلامية، ترجمة صالح الشماع وفيصل السامر، مطبعة الزهراء، القاهرة، ١٩٥٢، ص ٢٥٥.

(٤) الكاغد: كلمة فارسية من أصل صيني وتعني الورق*. والكاغد أجوده ما صفا لونه ونعم لمسه وثقل وزنه وقلت اسفاطه وآفته**.

نوع من الورق يصنع من الكتان والقنب^(١).

ويمكن القول بأن صناعة تجهيز ورق البردى بمصر للكتابة، انتهت تماما حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى، حيث إن ورق البردى المؤرخ ينتهى فى عام (٣٢٣هـ/٩٣٥م)، على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ عام (٣٠٠هـ/٩١٢م)^(٢).

== عفيف البهنسى: معجم مصطلحات الخط العربى والخطاطين، بيروت، ١٩٩٥م، ص ١٢٧.
فيليب حتى: تاريخ العرب، ج٢، بيروت، ١٩٥٣، ص ٥٠٢. حتى عبد الوهاب:
البردى والرق والكاغد فى افريقية التونسية، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ٢،
ج١، ١٩٥٦، ص ٤٥.

** الدمشقى: كتاب الإشارة إلى محاسن التجارة ومعرفة جيد الأعراض وريديها وغشوش
المدلسين فيها، مطبعة المؤيد، ١٣١٨، ص ٢٤.

(١) القنب: ضرب من الكتان يعمل منه حبال قوية وله ورق شبيه بورق الشجر، وهو منت
الرائحة وله قضيبان فارعا الطول، وبذره مستدير وله حب يسمى الشهدانج . ابن
البيطار: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، مج ٤، ص ٣٩. ابن منظور، لسان العرب،
تحقيق عبد الله على الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلى، مج ٥،
ص ٣٧٤٧. محمود مصطفى الدمياطى: معجم أسماء النباتات الواردة فى تاج العروس
للزيدي، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٢٩ .

(٢) يقال إن هذا النوع من الورق صنع لأول مرة فى الصين سنة (١٠٥ ق.م). * والذى اخترعه
هو " تساي لون" من أهل هانغ جو حيث كثر فيها أشجار التوت ويصنع من قشورها
الورق ومن ثم عمت هذه الصناعة فى بلاد الصين**.

* برنارد لويس: العرب فى التاريخ، ترجمة نبيه أمين فارس، بيروت، ١٩٥٤، ص ٢٣.
شعبان عبد العزيز خليفة: الكتب والمكتبات فى العصور الوسطى، الدار المصرية
اللبنانية، ١٩٩٧م، ص ١٨٨.

John Depew , Library Media and Archival Preservation Hand book ,California,England,
1991,p3

** آدم متر: الحضارة الاسلامية، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة، ج٢، دار الكتاب=

مما لا شك فيه أن الورق أسهم إسهاماً كبيراً في حفظ الحضارة وتطورها، فهو من أهم العوامل الداعمة لها، كما كان له أثره الواضح على اتساع دائرة التأليف والتصنيف. فيعد إنتاج الورق بداية المرحلة الذهبية للكتاب الإسلامي، والورق هو المادة الرئيسية للكتابة، وهو أحد الوسائل المهمة في نقل الأفكار والعلوم والمعرفة الإنسانية والعقائد الدينية^(١). وكانت سمرقند أكبر مركز لصناعته^(٢) فرأى العرب في الكاغد مادة خفيفة لينة سهلة الحمل والنقل لا تتطلب حيزاً كبيراً فأكثروا منه^(٣). ويحدثنا الثعالبي " أن كواغيد سمرقند عطلت قراطيس مصر، والجلود التي كان الأوائل يكتبون فيها، لأنها أحسن وأنعم وأرفق وأوفق ولا تكون إلا بها وبالصين"^(٤).

=العربي، بيروت، ص ٣٦٦، ٣٦٥. بدر الدين حى الصيبي: العلاقات بين العرب والصين، ص ٢٤٥. عبد الله بن العباس الجراي: تقدم العرب في العلوم والصناعات وأستاذتهم لأوربا، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦١، ص ٢١٣. محمد طه الحاجري: الورق والوراقة في الحضارة الإسلامية، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج ١٣، ١٩٦٦، ص ٧٥.

(١) أحمد سعيد عبد الله: تاريخ التدوين ومواد الكتابة، ص ١٤١.

(٢) أبو بكر الخوارزمي: رسائل أبي بكر الخوارزمي، بيروت، ١٩٧٠، ص ١٧٥. القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٣٦. محمد حسن العبادي: خراسان في العصر الغزنوي، الأردن، ١٩٩٧، ص ١٣٧.

(٣) يحيى وهيب الجبوري: الخط والكتابة في الحضارة العربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤، ص ٢٧٤.

(٤) الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، مطبعة المدني، ١٩٦٥، ص ٥٤٣. الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق على عمر، القاهرة، ٢٠٠٣ = ص ٣٩. عصام الدين عبد الرؤف الفقى: الحواضر الإسلامية، ص ٢٤١. محمد محمود إدريس: تاريخ العراق والمشرق الإسلامي خلال العصر السلجوقي الأول، ص ١٩١.

أما عن بداية ظهور الكاغد في العالم الإسلامي فتعددت الروايات حيث يذكر معظم المؤرخين أنه اندلعت في سنة (١٣٤هـ/٧٥١م) حرب بين القوات الصينية وقوات المسلمين بزعامة زياد بن صالح^(١)، وانتصر المسلمون على الصينيين^(٢) وفي هذا الصدد ذكر الثعالبي " أن الصينيين الذين وقعوا أسرى في أيدي العرب علموا أهل سمرقند صناعة الورق"^(٣)، بينما يذكر ول ديورانت أن سمرقند عندما فتحها العرب سنة (٩٤هـ/٧١٢م) كانت على معرفة جيدة بالكاغد، ووجد بها مصانع للورق ومن ثم تعلم العرب سر هذه الصناعة، ويؤيده في ذلك كل من ريسلر وحيدر بامات وفامبري^(٤)

(١) زياد بن صالح: استخلفه أبو مسلم الخراساني على الصغد وأهل بخارى عام (١٣٤هـ/٧٥١م) وهو أحد نقباء الدعوة العباسية ولكنه لم يلبث أن تحول عنه وخرج عليه وانتهى أمره بالقتل عام ١٣٥هـ. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧، ص٣٦٩.

(٢) بدر الدين حى الصينى: العلاقات بين العرب والصين، ص٢٤٣. نقولا زياده: تجارة بلاد الشام الخارجية في العصر العباسي، عمان، ١٩٩٢، ص٣٠٨. وليم الخازن: الحضارة العباسية، ط٢، دار المشرق، بيروت، ١٩٩٢، ص٧٥. سيدة إسماعيل كاشف: علاقة الصين بديار الاسلام، مجلة كلية الاثار، العدد١، ١٩٧٦، ص٤٠.

(٣) الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص٥٤٣. جون سي، فرنسيس اى، سامى خلف: عبقرية الحضارة العربية ينبوع النهضة، ترجمة صلاح جلال وآخريين، الإمارات، ١٩٧٧، ص٢١٣. دونالد هيل: العلوم والهندسة فى الحضارة الإسلامية، ص١٥٠. فليب حتى: تاريخ العرب، ج٢، ص٥٠٣.

Boyle, The Saljuq and Mongol Periods , the Cambridge History of Iran vol ,5 ,p146.

Geza Fehervari Islamic Pottery Acomprehensive study based on the Barlow collection , London ,1973, p27. Bosworth and Gerad Clauson, Al- xwarazmi on the Peoples of Central Asia , Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain, parts1,2,1965, p6

(٤) جرجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ج١، ص٣٢٩. حيدر بامات: مجالى=

وهذا الرأي يفقد إلى الدقة في ظل معرفتنا بحرص الصينيين على عدم إذاعة سر صناعتهم^(١).

وعلى ذلك يبدو لنا من هذه الآراء والتي لا تختلف كثيراً أن معرفة العرب بالورق الصيني إنما كانت بعد أن امتدت فتوح المسلمين إلى بلاد ما وراء النهر حتى وصلت حدود الصين، مما جعل وجود الاحتكاكات والمنافسات ما بين الصينيين والحامية الإسلامية أمراً طبيعياً، وكان من اثر ذلك أن ظفر المسلمون ببعض الأسرى الصينيين ممن خبروا صناعة الورق وعرفوا أسرارها، وكان هؤلاء الأسرى هم النواة التي كانت على أساسها صناعة الكاغد أو الورق الصيني في سمرقند^(٢).

بعد انتقال سر صناعة الورق إلى سمرقند من الصين^(٣) ناله على أيدي العرب التغيير الهام الذي يعتبر حادثاً هاماً في تاريخ العالم، فقام المسلمون بتنقيته مما كان يستعمل في صناعته من ورق التوت ومن الغاب الهندي^(٤)،

=الإسلام، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، ١٩٥٦، ص١٤٣. ريسلر: الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبدون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٨، ص١٨٥. فامبرى: تاريخ بخارى، ص٢٨. ول ديورانت: قصة الحضارة، ج٢، مج٤، ص١٦٩.

(١) Parter , p3 . Library Media and Archival Preservation Hand book , John Depew ,
The Art of Book Making the Splendour of Iran Islamic Period , Hong Kong , vol .3,
2001,p14

(٢) هالة شاكر عبد الرحمن: الورق والوراقون في العصر العباسي، القاهرة، ٢٠٠٤، ص١٠٤.

Boyle, The Saljuq and Mongol Periods , the Cambridge History of Iran,p146

Gerrit Parmele , A History of Civilization, p116.Gavin Hambly,Central Asia p68. (٣)

Lynn Thorndike, A Short history of civilization , New York, 1926 ,p291.

(٤) آدم متز: الحضارة الإسلامية، ج٢، ص٣٦٦. عبد الله بن العباس الجزارى: تقدم العرب في العلوم والصناعات، ص٢١٣.

وصنعوا الورق من القطن والخرق لتوفره وانتشاره^(١). وهنا يبرز دور الإبداع والابتكار في العقلية العربية التي لم تنقل دون تجديد وإبداع بل أضافوا أسساً جديدة في صناعته أعطت للورق صفات متميزة^(٢)، وظلت سمرقند وقتاً طويلاً المدينة الهامة المنتجة للورق الجيد^(٣)، وأصبحت منذ تركزت فيها صناعة الكاغد من المدن ذات الشأن الكبير في أنحاء البلاد الإسلامية، وتستحق ما نعتها به الاصطخرى بأنها فرضة بلاد ما وراء النهر ومجمع التجارات^(٤) خاصة أن ما اشتهرت به من الورق لا نظير له، وفيها كان يصنع ورق الكتابة ذو الجودة الفائقة^(٥). قال السمعاني في صناعة الكاغد: "وهو لا يعمل في المشرق إلا بسمرقند"^(٦)

(١) محمود شكرى الألوسى البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج١، ص ١٨٢. جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ط ٤، مطبعة عيسى البابي، ص ٤٨٢. حسن جبر: أسس الحضارة العربية الإسلامية، ط ٢، القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٩٤ سعيد عبد الفتاح عاشور: فضل العرب على الحضارة الأوربية، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٧٦. محمد عادل عبد العزيز: الحضارة الإسلامية وعوامل الازدهار في تداعيات الانهيار، دار غريب للطباعة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٢٥٩.

(٢) أسامة النقشبندى: موسوعة الورق والكاغد، حضارة العراق، ج ٩، بغداد، ١٩٨٥، ص ٤٤٣.

(٣) Annemarie Schimmel, Calligraphy and Islamic Culture, New York and London, 1984, p14. David Roxburch, On the Trans Mission and Reconstruction of Arabic Calligraphy Ibn al Bawwab and history, Studia Islamic, vol, 96, 2004, p41. Vladimir Minorsky, The Turks Iran and the Caucasus in the Middle Ages, London, 1978, p282.

(٤) الاصطخرى: المسالك والممالك، ص ١٧٨

(٥) مرتضى راوندى: تاريخ اجتماعى ايران، بخش دوم، جلد هشتم، جابخانه نوبهار، ١٣٧٤، ص ١٠٣

(٦) السمعاني: الأنساب، ج ٥، ص ١٨

من أهم أنواع الكاغد السمرقندى؛ الكاغد المنصوري المشهور بخراسان، وهذا النوع ينسب إلى أبي الفضل منصور بن نصر بن عبد الرحيم بن مت بن بحير الكاغدى وهو من أهل سمرقند، توفي سنة (٤٢٣هـ/ ١٠٣١م) (١) والكاغد الحسنى ينسب إلى أبي على الحسن بن ناصر الكاغدى، ويتسم الكاغد المنسوب إليه بجودة الصنعة حتى أن السمعاني يقول عنه: إنه لم يلحقه من سبقه فى جودة الصنعة (٢).

من الظواهر الثقافية التى تأثرت بشكل كبير بظهور الورق عملية الترجمة، التى تطورت فى القرن الرابع الهجرى الذى ازدهرت فيه الحضارة الإسلامية ونمت وبلغت غايتها من الإنتاج الواسع فى شتى ميادين العلوم والآداب (٣).

فنشأت حركة ترجمة العلوم إلى العربية فى البداية على يد غير العرب ثم تولاها العرب أنفسهم، وأتت هذه الحركة ثمارها حين هضم العرب هذه العلوم ثم تجاوزوا هذه المرحلة إلى مرحلة التأليف (٤) حيث كانت ملكات المسلمين قد بلغت درجة عظيمة من النضج واتسع أفق الفكر الإسلامى وخاصة فى مدن إقليم الصغد خلال العصر السلجوقى (٥) فالفرس أصحاب

(١) الذهبى: سير أعلام النبلاء، ج١٧، ص٣٦٨. السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٤، ص١٩٠. السمعاني: المصدر نفسه، ج٥، ص١٩ مرتضى راوندى: المرجع نفسه، ص١٠٤

(٢) السمعاني: المصدر نفسه، ج٥، ص١٩

(٣) ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة المعهد الفرنسى، القاهرة، ١٩٥٥، ص١

(٤) عبد العظيم حنفى صابر وعبد الحلیم منتصر: موجز تاريخ الصيدلة، ج٢، ص٣١٢

Gibb ,Arabic literature, p35

(٥) عبد النعيم محمد حسين: إيران والعراق فى العصر السلجوقى، ص١٨١

ملك قديم وحضارة عريقة ومعرفة تامة بالعلوم والآداب، كان لهم علم وأدب يتناسبان مع ضخامة ملكهم وعظم سلطانهم، فهم الذين ورثوا الآشوريين والبابليين فى الرياضيات، وكانت لهم كتب فى جميع فروع العلم، كما أنهم نقلوا إلى لغتهم كثيرا من علوم الهنود^(١).

ويعد كتاب "سندبادنامه" من أروع القصص والحكايات المشتملة على المواعظ والنصائح والحكم فى سيرة الملوك. وكان باللغة الهندية، جمعه حكماء الفرس لملوكهم، فنقله إلى الفارسية عميد الفوارس الفناورزى فى سنة (٣٨٩هـ/٩٩٨م) بأمر الأمير نوح ابن منصور السامانى، وكان مشوش الألفاظ والعبارة خاليا من السلاسة، فهذب عباراته وغيرها بلفظ صريح ظهير الدين محمد بن على بن محمد بن الحسن الكاتب السمرقندى وذلك بعد سنة (٥٥٦هـ/١١٦٠م) وجعله باسم السلطان قلع طمغاج خان بن قراخان برهان مسعود^(٢). ولاشك أن حركة الترجمة لعبت دورا كبيرا فى النهضة العلمية فى تلك العصور الزاهية وتأثرت بشكل مباشر بظهور الورق وأثرت فيه.

عبر تطور الكتابة مرت موادها بمراحل متعددة فى فترة العصور القديمة، وقبل أن يعرف أهل الصغد وسائر العرب الأقلام كانوا يستعملون عدة مواد للكتابة ومنها الآلة الحادة ذات الرأس المدبب فى الكتابة على الألواح الطينية والحجارة والخشب^(٣). وفى عصر الجاهلية استخدموا القلم فى التدوين،

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد: دور الفرس فى بناء الحضارة الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٥م، ص ٦٧

(٢) محمد عوفى: لباب الألباب، ص ٨٦. آغا بزرك الطهرانى: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ج ١٢، ط ٢، بيروت، ص ٣٥. ذبيح الله صفا: دور نمائى از فرهنگ ايرانى و اثر جهانى آن جلوه هائى از هنر ايران، تهران، ١٣٧٥، ص ١٢٥.

(٣) خيال محمد مهدي الجواهرى: من تاريخ المكتبات فى البلدان العربية، ص ٧٧.

وكان مصنوعاً من القصب يقط ويقلم أو ييسرى ثم يغمس في مواد الدواة ويكتب به (١).

وتتعدد مسميات القلم الذى هو أداة للكتابة، فمنها المذْبِرُ أو المِزْبِرُ الذى يزيه أى يكتب به، وكذلك جاءت الكلمة بمعنى الكتب فى القرآن الكريم فى قوله تعالى " وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ " (٢). وقيل يراع والمرقم ولكن أكثرها شيوعاً القلم، وتعددت الآراء كذلك حول اشتقاق هذه التسمية، فقيل القلم لأنه قلم أى قطع وسوى كما يقلم الظفر، وكذلك قيل للسهم أقلام (٣) قال تعالى " إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ " (٤).

تشير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية إلى أهمية القلم، ويقال أول ما خُلِقَ القلم، أو أن أول ما خلق الله اليراع - القصب - ثم خلق من اليراع القلم، ولذلك فإن القلم أشرف أدوات الكتابة وأعلاها رتبة، وغيره من الآلات الكتابة كأعوان، ويؤكد ذلك الشرف أن الله تعالى أقسم به قائلاً " ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ " (٥). كما ربط النص القرآنى بين القلم والتعليم فقال تعالى: " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ " (٦). وقال تعالى " وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " (٧).

(١) محمد عبد الستار عثمان: دور المسلمين فى صناعة الأقلام، دراسات آثارية إسلامية،

مج ٤، القاهرة، ١٩٩١، ص ١٧٥.

(٢) الشعراء: آية ١٩٦.

(٣) يحيى وهيب الجبورى: الخط والكتابة فى الحضارة العربية، ص ٢٨٦، ٢٨٥.

(٤) آل عمران: آية ٤٤.

(٥) القلم: آية ١.

(٦) العلق: آية ١-٥.

(٧) لقمان: آية ٢٧.

كان لتزول القرآن باللغة العربية وانتشار الإسلام ثم ما صاحب ذلك من مراحل تحول حضارية كالترجمة ومعرفة أهل سمرقند بصناعة الورق وظهور مواهب الخطاطين المسلمين، أثر كبير في تطور صناعة القلم، واستخدم لب الجريد الأخضر في صناعة الأقلام، لكن استخدام القصب في صناعتها كان سائدا لما لها من مزايا، فالأقلام المصنوعة من القصب تظهر قواعد الخط وهي سهلة الاستعمال وطوع يد الكاتب يقطعها كما يشاء بحسب حجم الكتابة ونوع الخط^(١)، وخير الأقلام ما كان طوله ستة عشر إصبعا إلى اثني عشر، وامتلاؤه ما بين غلظ السبابة إلى الخنصر، وهذا وصف جامع لسائر أنواع الأقلام على اختلافها^(٢).

كانت المقلمة والمدية والدواة من متعلقات الأقلام، والمقلمة هي التي توضع فيها الأقلام أما المدية فهي السكين وقيل مسن الأقلام. وأما الدواة فقيل عنها إنها أم آلات الكتابة التي لا غنى للوراق عنها وهي الآنية التي يوضع فيها الحبر، فالدواة هي المحبرة^(٣) ومن هذه الأدوات أيضا المداد والحبر، وسمى المداد بذلك لأنه يمد القلم أي يعينه^(٤) وورد ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى " قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتُ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ^(٥) ". أما الحبر فأصله اللون، وسمى

(١) محمد طاهر بن عبد القادر الكردي: تاريخ الخط العرب وآدابه، ص ٩٨. محمد عبد الستار عثمان: دور المسلمين في صناعة الأقلام، دراسات آثارية إسلامية، مج ٤، القاهرة، ١٩٩١، ص ١٧٥.

(٢) يحيى وهيب الجبوري: الخط والكتابة في الحضارة العربية، ص ٢٨٨.

(٣) شعبان عبد العزيز خليفة: الكتب والمكتبات في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٢٠٤.

(٤) هالة شاكر: الورق والوراقون، ص ١٥٨، ١٥٧. يحيى وهيب الجبوري: المرجع نفسه، ص ٢٩٢.

(٥) الكهف: آية ١٠٩.

المداد الحبر، وسمى الحبر حبراً لتحسينه الخط، على أن الذى يهمننا هو أنواع المداد وما يناسبها من مواد الكتابة، فكان حبر الدخان أنسب ما يكون للكتابة به على الكاغد فى سمرقند وسائر مدن الصغد^(١).

خلاصة القول تعددت آلات الكتابة وأدواتها التى تعين الوراق على القيام بمهامه ما بين أوراق وأقلام ومداد ومتعلقاتها. هكذا لعبت أدوات الكتابة دوراً بارزاً فى إثراء الحياة الثقافية التى شهدتها ذلك العصر .

رافق صناعة الورق وازدهارها ظهور طائفة من الناس يعملون بالورق والكتابة والكتب، وهؤلاء هم الوراقون^(٢)، الذين لعبوا دوراً مهماً فى تاريخ الحضارة الإسلامية، ذلك أن الوراقين آنذاك كانوا هم الناشرون للكتب يقومون بنسخها وتجليدها وتصحيحها وبيعها وعرضها فى الواجهات والاتجار بها^(٣).

والوراقة من أجود الصنائع لما فيها من الإعانة على كتابة المصاحف وكتب العلم ووثائق الناس وعهدهم، وعلى الوراق أن يعلم أن من يشتري الورق يشتريه لكتابة كتب العلم ويمتنع عن بيعه لمن يعرف أنه يكتب ما لا ينبغى من البدع والأهواء^(٤)، واشتغل بالوراقة علماء أجلاء، وأصبحت

(١) خيال محمد مهدى: من تاريخ المكتبات فى البلدان العربية، ص٧٩. عفيف البهنسى: معجم مصطلحات الخط العربى والخطاطين، ص١٢٧ .

(٢) كان مصطلح وراق فى بدايته يعنى الناسخ الذى ينسخ الكتب بخط يده ثم تطور بعد ذلك ليعنى دوراً أكبر يرادف مصطلح الناشر فى عصرنا الحالى . شعبان عبد العزيز خليفة: الكتب والمكتبات فى العصور الوسطى، ص١٤٩ .

(٣) التنوخى: نشوار المحاضرة، تحقيق عبود الشالجي، ج١، ١٩٧٢/١٩٧١م، ص٣. سعيد أحمد حسن: أنواع المكتبات فى العالمين العربى والإسلامى، عمان، ١٩٨٤، ص٩. عصام الدين عبد الرؤف الفقى: الحواضر الإسلامية، ص٢٤٢ .

(٤) السبكى: معيد النعم ومييد النقم، تحقيق محمد على النجا وأبى زيد شلى ومحمد أبى العيون، ط٢، القاهرة، ١٩٩٣، ص١٣٢ .

الوراقة مهنة مهمة، وانتشرت دكاكين الوراقين فى طول البلاد وعرضها، وأصبح للمؤلفين المشهورين وراقون يختصون بهم وأصبحت دكاكينهم أماكن ثقافية يرتادها الأدباء وتعقد فيها المناظرات وتدور فيها المناقشات^(١). ومع كثرة الورق وانتشار استعماله فى سمرقند كان من الطبيعى أن تقام حوانيت وأسواق الوراقة لبيع الورق ومستلزماته ولتسويق ما تنتجه معامل الورق^(٢).

أما عن طبيعة الأنشطة والممارسات التى كان سوق الوراقين يمارسها، فلم تكن هذه الدكاكين مقصورة على تجارة الكتب والصفقات التجارية ونسخ الكتب^(٣)، وإنما كان للوراقين أبعاد فى الحياة الثقافية وتحولت أسواقهم إلى مراكز للنشاط العقلى وحوانيتهم مستودعا لكل ما أنتجته القريحة العربية فى شتى فروع المعرفة^(٤)، فكانت بلا شك مسرحا للثقافة والحوار العلمى، عندما أمها المثقفون والأدباء، واتخذوا منها مكانا لاجتماعاتهم وأبحاثهم^(٥)، ولم

(١) شعبان عبد العزيز خليفة: المرجع نفسه، ص ١٥٢. محمد ماهر حمادة: المكتبات فى

الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرها، ط ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٨، ص ٧٥.

(٢) هالة شاكر: الورق والوراقون، ص ٢٠٠.

(٣) أحمد شلى: التعليم والتربية عند المسلمين، مج ١، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٥، ص ٦٥.

(٤) عبد الستار الحلوجى: الكتاب العربى المخطوط فى نشأته وتطوره إلى آخر القرن الرابع

الهجرى، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ١٣، ج ١، ١٩٦٧، ص ٣٠١.

(٥) سعيد أحمد حسن: أنواع المكتبات فى العالمين العربى والإسلامى، ص ١٠. عبد الستار

الحلوجى: دراسات فى الكتب والمكتبات، ط ١، السعودية، ١٩٨٨، ص ١٩. عبد النعيم

محمد حسين: دولة السلاجقة، ص ١٧٢. ول ديورانت: قصة الحضارة، ج ٢، مج ٤،

ص ١٧٠. يوسف محمود: الإنجازات العلمية فى الحضارة العلمية، ص ٧٩. حبيب

الزيات: الوراقة، مجلة المشرق، سنة ٤١، ١٩٤٧، ص ٣٤٩. عمر أحمد غنام: المؤسسات

التربوية، مجلة الثقافة الإسلامية، العدد ٤٠، ١٩٩١، ص ١٧٠.

يكن بائعو الكتب مجرد تجار وإنما كانوا ذوي ثقافة يسعون للذة العقلية من وراء هذه الحرفة التي كانت تتيح لهم القراءة والاطلاع، وتجذب لدكاكينهم العلماء الأدباء^(١).

ومن ناحية أخرى ارتبطت مهنة النسخ بالوراقة، فكان النسخ من أهم مصادر الحصول على الكتب، حيث كانت أغلب المكتبات لديها نساخ يتناوبون العمل فيها، وكذلك الحال مع أغلب المؤسسات، حتى انه وجد عند بعض الأفراد نساخ ينسخون لهم الكتب لحسابهم الخاص، وكان بأغلب المكتبات غرفة أعدت لجلوس النساخ وممارستهم عملهم، وزودت تلك الغرف بمستلزمات النسخ من أساس وتجهيزات ومحابر وأقلام وورق. ولم يكن باستطاعة أى إنسان أن يحترف النسخ إذ إن الشرط الأول لهذه المهنة جودة الخط ووضوحه وصحته، كذلك كان هناك من يضبط ويراقب عمل النساخ، فالتصحيح والمقابلة من أهم المميزات التي تميز مخطوطاً عن مخطوط^(٢).

وما يجدر الإشارة إليه هنا أن مهنة الوراقة رغم أهميتها العظمى وأن عدداً كبيراً من العلماء والفضلاء والصلحاء اشتغلوا بها، فإنها كانت من المهن المتعبة والمكروهة^(٣) لدى البعض، وكثيراً ما اعتقدوا أن الوراقة سبب لحرمان الرزق، وهذا الرأي وإن كان يتسم بالواقعية فى بعض جوانبه، فإنه لا يمكن الاعتماد عليه إطلاقاً فى ظل اتفاق المصادر على أهمية هذه المهنة ومن يعمل بها، ويقول أحد الوراقين المتذمرين من هذه المهنة:

(١) أحمد شلبى: المرجع نفسه، مج ١، ص ٦٥. حسين على المسرى: تجارة العراق فى العصر العباسى، ص ١٣١. سعيد إسماعيل على: معاهد التربية الإسلامية، ص ٤٧٦. فليب حتى: تاريخ العرب، ج ٢، ص ٥٠٢.

(٢) محمد ماهر حمادة: المكتبات فى الإسلام، ص ١٧٥.

(٣) محمد ماهر حمادة: المكتبات فى الإسلام، ص ١٧٩.

إن الوراقنة حرفة مذمومة مخرومة ىمشى بها زمن
إن عشت عشت ولىس لى أكل أومت مت ولىس لى كفن (١)
وقال ابن صارة الأندلسى :

أما الوراقنة فهى أنكد حرفة أغصانها وثمارها الحرمان
شبهت صاحبها بآبرة خائط تكسو العرأة وجسمها عريان .

سئل وراق عن حاله فقال: عىشى أضىق من محبرة . وجسمى أذك من مسطرة ، وجاهى أرق من الزجاج ، ووجهى عند الناس أشد سوادا من الحجر بالزاج ، وحظى أخفى من شق القلم ، وىداى أضعف من قصبنة ، وطعامى أمر من العفص ، وشرابى أحر من الجمر ، وسوء الحال ألزم لى من الصمغ . فعبعن حاجاته وشؤونه بأدوات صناعته (٢) ، مما ىدل على أن هذه المهنة شاقنة وأن عائدها بسىط .

حفلت قوائم الوراقىن بأسماء شخصىات لامعة منها الشىخ أبى الفضل منصور بن نصر ابن عبد الرحىم بن مت السمرقندى الكاغدى أستاذ شىخ الإسلام أبى بكر جواهر زاده ، (ت ٤٢٣هـ / ١٠٣١م) كان بارعا فى صناعة الورق وىبعه ، وإلىه ىنسب الورق العالى المنصورى (٣) . وحدث عنه طاهر بن أحمد بن على بن محمود أبو الحسىن القاىنى الفقىه الشافعى نزىل دمشق (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م) (٤) .

(١) شعبان عبد العزىز خلىفة: الكتب والمكتاب فى العصور الوسطى ، ص ١٧١ .

(٢) عىسى اسكندر المعلوف: خزائن الكتب العربىة وعلم وصف مخطوطاتها ، مجلة المجمع

العلمى العربى ، مج ٣ ، ١٩٢٣ ، ص ٢

(٣) الذهبى: سىر أعلام النبلاء ، ج ١٧ ، ص ٣٦٨ . السبكى: طبقات الشافعىة الكبرى ،

ج ٤ ، ص ١٩٠ . طاش كبرى زاده: طبقات الفقهاء ، ص ٧٨ .

(٤) الذهبى: تاریخ الإسلام ، ج ٣١ ، ص ١٢١

وكان من المهن التي لها علاقة بالوراقة دلال الكتب، وكان أبو القاسم إسماعيل بن أحمد بن عمر السمرقندي المتوفى ببغداد سنة (٥٣٦هـ/١١٤١م) محترفاً لبيع الكتب وكان دلالاً محظوظاً؛ فذات مرة اشترى صحيح البخاري وكتاباً آخر بدينار وقيراط، فباع الكتاب الآخر بدينار، وصحيح البخاري بعشرين ديناراً^(١). ومن الوراقين المشهورين أبو علي الحسن بن ناصر الكاغدي، المعروف بالدهقان، إليه ينسب الكاغد الحسنى الذي لم يلحقه من سبقه فى جودة الصنعة، كان يحضر المجالس التى أملها السمعاني بسمرقند، ووصفه السمعاني فقال: " كان سديد السيرة صدوق اللهجة فقيهاً، سمع جماعة من العلماء وبلغ أوان الرواية"^(٢).

ومن الوراقين الذين ذاع صيتهم أبو منصور بن محمد بن سليمان بن قتلش بن تركانشاه السمرقندي الأصل البغدادي (ت ٦٢٠هـ/١٢٢٣م) كان من كبار العلماء وهو من بيت الإمارة، خلف له والده أموالاً كثيرة فضيعها فى القمار واللعب بالنرد، واضطرته ظروف الحياة لممارسة الوراقة وامتهانها بغية التكبس والعيش. فكان يورق بأجرة بخطه الجميل الصحيح المعتبر فكتب كثيراً من الكتب^(٣).

(١) الذهبى: سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، ص ٣٠. ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٨، ص ٣٥٧، ٣٥٨. الصفدى: الوافى بالوفيات، اعتناء يوسف فان اس، دار صادر، بيروت، ج ٩، ١٩٧٤، ص ٨٨. ابن الفوطى: مجمع الآداب فى معجم الألقاب، تحقيق محمد الكاظم، مج ١، ١٤١٦، ص ٤٨٣، ٤٨٤.

(٢) السمعاني: الأنساب، ج ٥، ص ١٩. الصفدى: المصدر نفسه، ج ١٢، ص ٢٨١.

القرشى: الجواهر المضية، ج ٢، ص ٩٤. النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص ٣٣.

(٣) السيوطى: بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبى الفضل

إبراهيم، ج ١، بيروت، ص ١١٥. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٠٢. المنذرى:

التكملة لوفيات النقلة، مج ٣، ص ٩٨.

صفوة القول ساعدت حوائيت الورق وأسواقه على رفع مستوى الثقافة وإيجاد طبقة من المثقفين على درجة عالية من النضج والتفوق العلمى، فكانت بمثابة مكتبة عامة يتاح فيها القراءة والاطلاع، وساهم الوراقون مساهمة فعالة فى إرساء صرح الحضارة الإسلامية بصورة تعكس نشاطا فكريا وجانبا مضيئا فى تاريخ الحضارة الإسلامية. وكان من الطبعى أنه حيث قامت صناعة الكاغد قامت أسواق الورق والوراقة.

رغم اتفاق المصادر وإجماعها على اهتمام السلاجقة بالعلم والعلماء وأن دولتهم كانت إيدانا بنهضة علمية واسعة، ففى نفس الوقت لا يمكن نفى أن العلم تأثر فى هذا العصر بالتطورات والتغيرات السياسية والعقائدية كثيرا، مع ملاحظة أن هذا التأثير السلبى لم يشمل كافة مناحى العلم، وإنما اقتصر على بعض العلوم ولاسيما الفلسفة. وهذا ما يناقش خلال السطور التالية.

لا شك أن الحياة الثقافية ترتبط بالأوضاع والتطورات السياسية والعقائدية والاقتصادية والحاصل أن هذه الأوضاع أدت إلى خروج العلم عن محوره الحقيقى، وهو البحث فى حقائق الأشياء، كما آلت إلى انحطاط مستوى تفكير العلماء وضياح أوقاتهم فى الخصومات بينهم وشيوع العصبية وضيق الأفق، وأصبحت الحكمة والفلسفة أداة للمناظرة والجدل بين أصحاب المذاهب^(١).

يقول قاسم غنى: "إنه منذ استيلاء العناصر التركية على البلاد الإسلامية وشيوع الأوهام والخرافات، وضيق الفكر وظهور روح اليأس التى كانت تجرى كالمس الزعاف فى أجسام المفكرين قد قوت جذور الضعف

(١) أحمد كمال الدين حلمى: السلاجقة، ص ٢١٥. عبد النعيم محمد حسين: إيران والعراق

فى العصر السلجوقى، ص ١٧٢.

الأخلاقي والمعنوي والانحطاط العلمي والاجتماعي، ومهدت السبيل للتدهور تدريجياً»^(١).

رجحت العلوم الدينية كالحديث والفقه والعلوم الشرعية، وكانت مورداً لحاجات العامة وضرورية لهم، في حين أن سائر العلوم ولاسيما الفلسفة كانت تعتبر من العلوم المستظرفة، إذ كانت العلوم الدينية في القرن السادس أكبر العوامل لتهيئة المعاش للأفراد، أي أن الإنسان كان بإمكانه أن يصل بمعرفة العلوم القرآنية والفقه والحديث إلى منصب القضاء والوعظ والإمامة ورواية الحديث والتذكير والتدريس في المدارس، وأن يقترب من الملوك والأمراء ويكون موضعاً لاحترام الناس والإعجاب والحصول على رفاهية العيش، بينما كان المشتغلون بالعلوم الفلسفية يعيشون في الفقر والبؤس، وكانت علومهم وحكمتهم سبباً لتعاستهم ونكبتهم^(٢). وهذا الرأي يتسم بالواقعية في بعض جوانبه إلا أنه لا يمكن الاعتماد عليه إطلاقاً في ظل اتفاق المصادر على النهضة الثقافية التي شملت مدن الصغد وسائر ما وراء النهر خلال العصر السلجوقي.

لما كان السلاجقة على مذهب السنة ويغلب عليهم التعصب ضد الشيعة^(٣) فارتبط الوضع الديني ارتباطاً مباشراً بالوضع السياسي، فلم تكن

(١) قاسم غني: تاريخ التصوف في الإسلام، ترجمة صادق نشأت، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ٦٧٦.

(٢) قاسم غني: المرجع نفسه، ص ٦٧٨. مريزن سعيد مريزن عيسري: الحياة العلمية في العراق، ص ١٥١.

(٣) ابن شهر آشوب: معالم العلماء في فهرست كتب الشيعة وأسماء المصنفين، تنمة كتاب الفهرست للطوسي، طهران، ١٩٣٤م، ص ٩. حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي، ص ٥٧٨.

الاختلافات بين سنة وشيعة فقط بل ظهر تناحرها في المذهب الواحد، فالشافعية والحنفية كانت بينهما مواقف عدائية سببت فتناً داخلية^(١) وما ساعد على إشعال تلك الفتن أن حكام السلاجقة كانوا حنفيين، بينما وزراؤهم ينقسمون إلى حنفيين وشافعيين، ومن ثم شاعت العصبية بين الحنفية والشافعية في عهدهم^(٢) في مدن إقليم الصغد وبلاد ما وراء النهر، فعلى سبيل المثال كان عميد الملك وزير طغرل بك شديد التعصب للحنفية الماتريديّة - المذهب الغالب في الصغد وما وراء النهر- ضد الشافعية الأشعرية، وبلغ من تعصبه أنه لعن الأشاعرة على المنابر^(٣)، ولما مات طغرل بك سنة (٤٥٥هـ/١٠٦٣م) تولى السلطنة بعده ابن أخيه ألب أرسلان^(٤) واستوزر نظام الملك، الذي أبطل ما كان يفعله الوزير عميد الملك قبله من سب الأشاعرة، وانتصر للشافعية^(٥). وشجع التعليم وافتتح العديد من المدارس وجعلها وقفا للمذهب السني الشافعي، وكان لهذه المدارس أثرها في تثبيت

(١) المقدسي بن القيسراني: صفوة التصوف، ص ٣٥.

(٢) طه ندا: فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية، بيروت، ١٩٧٦، ص ١٥٤. مصطفى صدرى: شرح حال رجال ومشاهير نامى ايران، تهران، ١٣٧٤، ص ٢٥٠.

Juli Scott Meisami , Persian Historiography to the End of the Twelfth Century ,London, 1999,p143. Var Javand of Iran , Islamic Period , vol,2 , London ,2001,p86

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٥، ص ٥٤. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢، ص ٦٤.

(٤) حمد الله المستوفى: تاريخ كزیده، ص ٩٧.

Harrison Sherein,Persia, Oxford,1945, p257 . Sourdel , La civilisation de l 'Islam Clas-sique, p101

(٥) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج١٠، ص ٣٣. السيوطى: تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم الشماعى الرفاعى ومحمد العثمانى، بيروت، ١٩٨٦م ص ٤٧٨. النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، ج٢٦، ص ٣٣٣.

قواعد المذهب السني^(١) ودحض المذهب الشيعي . وأصبحت هذه المدارس مما يدعو للأسف سبياً فى إيجاد فجوة بين السنة والشيعية من ناحية، والشافعية والحنفية من ناحية أخرى^(٢) .

يعتبر النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى حتى بداية القرن السابع الهجرى من أكثر الفترات التى اشتدت فيها الخلافات المذهبية فى مدن الصغد^(٣) ، بين السنة والشيعية والأشاعرة والمعتزلة والإسماعيلية، وكذلك النزاع بين أهل السنة أنفسهم الحنفية والشافعية، واختلاف وجهات النظر بين الفقهاء والفلاسفة بلغ أشده بحيث أدى الحال إلى حدوث الكثير من المخاصمات^(٤) .

وساد الاضطراب الدينى والمذهبى وكثر المتعصبون، بحيث يرى المؤرخون أن هذه الفترة هى فترة وضع أساس انحطاط المدينة الإسلامية، وأن التشدد حل فيها مكان الحرية الفكرية، ومن ضمن محاولات الدولة للقضاء على الشيعة تلك المحاولة التى حدثت سنة (٤٣٦هـ / ١٠٤٤م) حيث استأصل بغراخان حاكم سمرقند وبلاد ما وراء النهر عروق الإسماعيلية من بلاده بقتله كل دعاة المستنصر والمستجيبين له، وكتب إلى سائر بلاده بقتل من يجدونه منهم^(٥) .

(١) الجوينى: لمع الادلة فى قواعد عقائد أهل السنة والجماعة، تحقيق فوقية حسين محمود، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٢٢ .

Bosworth , The Islamic Dynasties,p117. Sevim and Bosworth , The Seljuqs and the Khwarazm shahs , History of civilization central Asia,Vol,4 ,p159 .

(٢) أحمد كمال الدين حلمى، عمر الخيام، مطبعة الخانجى، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ٦٥ .

(٣) أحمد كمال الدين حلمى: السلاجقة فى التاريخ والحضارة، ص ٢١٥ .

(٤) ابن القيسرانى: صفوة التصوف، ص ٥٢ . قاسم غنى تاريخ التصوف فى الإسلام، ص ٦٥٩ .

(٥) كامل مصطفى الشيبى: الفكر الشيعى والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثانى عشر، -

ثمة ملاحظة هامة في دولة القراخانيين لم تبلغ في دولة السلاجقة ما بلغت هناك، ألا وهي ظاهرة العداء بين بعض حكام تلك الدولة ورجال الدين، وأمدتنا المصادر بعدد من الوقائع التي تدل على ما اتصفت به هذه الخصومة من حدة، لكنها مع الأسف لم تلق الضوء على أسباب هذه الخصومة، فكان طمغاج خان إبراهيم (٤٤٤ - ٤٦٠ هـ / ١٠٥٢ - ١٠٦٨ م) رغم ما عرف عنه من تدين شديد، قد اصطدم برجال الدين، وأمر بقتل أحد المشايخ وهو الإمام أبو القاسم السمرقندي^(١).

ظلت الخصومة بين الحكومة في سمرقند ورجال الدين مستعرة في عهد شمس الملك ففي بداية عهده (٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م) أعدم الإمام أبو إبراهيم بن إسماعيل بن أبي نصر الصفار ببخارى، ويقول النسفي: "كان إماماً فاضلاً قوالاً بالحق لا يخاف في الله لومة لائم، قتله الخاقان صبراً لأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر"^(٢)، ولم يتوقف النزاع بينهما ففي سنة (٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م) قتل الخاقان خضر بن إبراهيم السيد المرتضى ذو الشرفين أبو المعالي محمد بن محمد بن زيد العلوي البغدادي نزيل سمرقند^(٣).

=بغداد، ١٩٦٦، ص ٦٥. محمد السعيد جمال الدين السعيد: دولة الإسماعيلية، المطبعة العصرية، بيروت، ١٩٩٩، ص ٨١. محمد محمود إدريس: تاريخ العراق والمشرق الإسلامي، ص ١٦٣.

(١) بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ص ٤٥٨، ٤٦١.

Michal Biran, Ilk khand, Encyclopedia Iranica, vol. 12, p623

(٢) النسفي: القند في ذكر علماء سمرقند، ص ٤١٠. بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ص ٤٦٤.

(٣) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج ٤، ص ١٢٠٩، ١٢١١. ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٣، ص ٣٦٥. أبو عبد الله الدمشقي الصالحى: طبقات علماء الحديث، ج ٣، ص ٤٠٠، ٤٠٣. الياقبي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج ٣، ص ١٣٢، ١٣٣.

من ناحية أخرى تدخل العلماء من أصحاب المذاهب والفقهاء فى شؤون الحكم والسياسة، فى سنة (٤٨٨هـ/١٠٩٥م) أفتى الفقهاء بقتل الخان أحمد حاكم سمرقند لذندقته فخلق وجلس ابن عمه مسعود مكانه^(١). ويعد هذا الحادث أقصى ما بلغه نفوذ علماء الدين فى تدخلهم ضد الحكومة .

فلم تكذ تهاداً الخصومة بين الحكومة فى سمرقند ورجال الدين إلا وتشتعل من جديد، فكان للإمام الصفار الذى قتله الخان شمس الملك، ابن " يدعى: أبو اسحق إبراهيم بن إسماعيل، كان مثل أبيه فى اجتناب المداينة وقمع السلاطين وقهر الملوك حتى أخذه السلطان سنجر معه إلى مرو وأسكنه فيها لتوطيد الاستقرار ببلاد ما وراء النهر. وقتل أرسلان خان حاكم سمرقند السيد الأجل أبا المكارم الأشرف بن محمد بن حمزة بن الحسن بن على بن عبيد الله بن العباس بن على بن أبى طالب وذلك سنة (٥٢٣هـ/ ١١٢٨م)^(٢) ولم يلبث أن أصيب أرسلان خان فى أواخر حياته (٥٢٤هـ/١١٢٩م) بالفالج، فأشرك ابنه نصر فى الحكم، وحيكت ضد الحاكم الشاب نصر مؤامرة على رأسها اثنان، هما: الفقيه المدرس أشرف بن محمد السمرقندى من العلويين، والآخر هو رئيس مدينة سمرقند، فقاما باغتيال نصر متتهزين غياب أرسلان خان، فاستغاث الأخير بالسلطان سنجر واستدعى ابنه الآخر أحمد وخرج الفقيه والرئيس لاستقباله، فأمر الخان أحمد بالقبض عليهما ويقتل الفقيه فى الحال^(٣).

كان العداء والخصومة على أشدهما بين السنة والشيعة منذ القرن الخامس الهجرى الذى يمثل قمة التمزق للدولة الإسلامية، ويؤكد ذلك ما

(١) الذهبى: سير أعلام النبلاء، ج١٩، ص١٢٨، ١٢٧. السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ٨٥.

ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص٧.

(٢) النسفى: المصدر نفسه، ص٩٣.

(٣) النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، ج٢٦، ص٣٨٣.

قاله نظام الملك: إنه أرسل شمس الملك حاكم سمرقند رسولا إلى دولة السلاجقة ليستطلع أمر السلاجقة، ولما رجع إليه الرسول أخبره بأن دولة السلاجقة دولة قوية ولكن بها عيب وهو أن وزير سلطانها رافضى^(١). وعرف ذلك من الخاتم الذى كان يلبسه نظام الملك فى إصبع يمينه^(٢) ويحكى نظام الملك أنه كتب إلى أن اشتر الفقيه من فوره" لقد انبسط اللسان فى شأنك هنا أمام شمس الملك وكتبت لك هذا لتكون على علم " فقلت من خشية السلطان وقلت فى نفسى: إنه ليضيق بالمذهب الشافعى صدراً وإن سمع أن القراخانيين وصمونى بأننى رافضى، وأنهم قالوا ذلك أمام خان سمرقند ما أمتنى على نفسى، فأنفقت ثلاثين ألف دينار ذهباً حتى لا يبلغ هذا القول مسمع السلطان"^(٣).

شاء القدر أن يقتل نظام الملك على يد أحد الفدائية بأمر حسن الصباح^(٤)، ثم لحق به السلطان ملكشاه وانخرطت الدولة السلجوقية فى عهد جديد من الضعف والانقسام، ولم تعد الدولة تخضع لسلطان واحد، بل يتنازعها أكثر من سلطان فى وقت واحد ومهدت، تلك الأحداث لزيادة نفوذ الإسماعيلية وأخرجوا يد النهب من جيب التهور، فقتلوا الأمراء

(١) الرافضة: هم الذين يتبرؤون من أصحاب النبى ﷺ ويسبونهم ويتقصونهم، ويكفرون الأئمة الأربعة على وعمار والمقداد وسلمان. القاضى أبو الحسين محمد بن أبى يعلى: طبقات الحنابلة، تعليق محمد حامد الفقى، ج١، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٥٢، ص ٣٣.

(٢) يقول نظام الملك: كان هذا الخاتم رهنا عندما غلبت أحد الأشخاص فى الشطرنج، ولعل رسول شمس الملك توهم أن الخاتم من طين أبيض كتب عليه اسم الإمام إسماعيل كلك التى يسلكها دعاة الإسماعيلية فى أصابع من يتمون إلى مذهبهم. نظام الملك: سياست نامه، ص ١٣٢.

(٣) نظام الملك: المصدر نفسه، ص ١٣٢.

(٤) ميرخواند: روضة الصفا فى سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ص ٢٤٤.

والمشاهير^(١)، ولم يكفوا أيديهم عن يريدون قتله لانشغال السلاطين عنهم، فمن جملة فعلهم ما حدث سنة (٤٩٨هـ/١١٠٤م) عندما تجمع الحجاج من خراسان وبلاد ما وراء النهر وغيرها من البلاد وساروا، فلما وصلوا قرب الرى أتاهم الباطنية وقت السحر فوضعوا فيهم السيف فقتلوه عن آخرهم، وأخذوا جميع أموالهم^(٢).

ثم تكررت نفس الكارثة سنة (٥٥٢هـ/١١٢٨م) عندما خرجت طائفة كبيرة من أهل القلاع الإسماعيلية وقطعوا الطريق على القافلة العائدة إلى سمرقند، عند قومس، وقتلوا أكثر من سبعين نفسا من الحجاج والعلماء، كان منهم الفقيه الواعظ مجد الدين أحمد بن عمر بن محمد بن لقمان أبو الليث النسفى السمرقندى^(٣).

من ناحية أخرى تأثرت الحياة الثقافية فى إقليم الصغد منذ العصر السلجوقى بالتغيرات والتطورات السياسية تأثرا كبيرا، وكان القرن الخامس الهجرى يمثل قمة التمزق الذى وصلت إليه الدولة الإسلامية، وتفرقتها إلى دويلات، ومن البديهي أن العلوم غالبا تتبع المقتضيات العصرية، فكانت تروج أو تتوقف بحسب مساعدة الأوضاع أو عدم مساعدتها^(٤) فأدى الانحلال والتفكك السياسى والخصومات والمنازعات الداخلية فى إقليم الصغد منذ القرن الخامس حتى القرن السابع الهجرى إلى متاعب كثيرة، وصارت سمرقند هدفا للهجوم والسلب، الأمر الذى أدى إلى الاضمحلال الثقافى فى فترات الاضطرابات السياسية. فكان للتمزق السياسى الذى تعرضت له مدن الصغد

(١) ميرخواند: المصدر نفسه، ص ٢٤٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ٩، ص ٨٤. ابن الساعى: مختصر أخبار الخلفاء، القاهرة، ١٣٠٩، ص ٩٣. أبو الفدا: المختصر فى تاريخ البشر، ج ٢، ص ٢٢٠.

(٣) الذهبى: تاريخ الإسلام، ج ٣٨، ص ٧٧.

(٤) قاسم غنى: تاريخ التصوف، ص ٦٧٨.

أثره الواضح فى تأخر الحياة الثقافية لانشغال الحكام عن مصالح الرعية بالصراع حول الحكم، والحق أن طبيعة البحث لا تقتضى تتبع المعلومات عن تلك الاضطرابات السياسية واستقصاء الحديث عنها، ويكتفى بالنماذج التى عرضت أثناء الحديث عن الحالة السياسية لما لها من تأثير سلبى فى الحياة الثقافية فى مدن الصغد خلال فترة الدراسة.

يمكن القول أن انتكاس الحضارة فى بلاد ما وراء النهر بصفة عامة وإقليم الصغد بصفة خاصة كان ناتجاً فى معظمه عن الكوارث السياسية التى مر بها، فكان مصير سمرقند بعد هذا الماضى التليد والتاريخ الحافل أن دمرت وانحطت مؤسساتها التعليمية وزالت من الوجود لما اعترها من ضروب المحن والثورات وضعف الحكام، ومن ناحية أخرى ما أصاب المسلمين من جمود وتأخر؛ مما أدى إلى تقهقر الحياة العلمية.

كما كان لاضطراب الأحوال الاقتصادية فى إقليم الصغد أثرها الواضح على تأخر الحياة الثقافية خلال فترة الدراسة، فكما أسلفنا إن العلوم غالباً تتبع المقتضيات العصرية وتتأثر بها، ولعل من المناسب هنا الإشارة إلى بعض هذه الأزمات الاقتصادية وما لها من آثار سلبية على الحياة الثقافية؛ فيحدثنا ابن الجوزى عن انتشار الغلاء والوباء فى جميع البلاد سنة (٤٤٩هـ/١٠٥٧م) ومات من الجوع خلق كثير، وورد كتاب من تجار بلاد ما وراء النهر أنه وقع فى هذه الديار وباء مسرف^(١)، ومات بسمرقند فى الفترة من عاشر شوال إلى ذى القعدة مائتا ألف وستة وثلاثون ألفاً^(٢). ويقول ابن الأثير: وجد ميت ودخل تركى يأخذ لحافاً عليه، فمات التركى وطرف اللحاف بيده، وبقيت

(١) ابن الجوزى: شذور العقود فى تاريخ العهود، مخطوط بدار الكتب، رقم ٩٩٤ تاريخ، ميكروفيلم ٣٥٨٢٦، ص ١٣١. الديار بكرى: تاريخ الخميس، ص ٣٥٨. الذهبى: العبر، ج ٢، ص ٢٩٣.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٦١.

أموال الناس سائبة^(١)، وكان مؤدب أطفال عنده تسعمائة صغير فلم يبق منهم واحد^(٢). ودونت عن هذا الوباء قصص مروعة وانتشرت المجاعة وهدمت الأقباط حتى أكل الناس الكلاب والقطط^(٣)، ومات في هذا الوباء عدد من العلماء، كان موتهم بلا شك خسارة للحياة الثقافية، ومنهم أبو الحسن على ابن عبد العزيز بن محمد بن أحمد بن حامد الديزكى الزبيرى من سلالة الزبير بن العوام (٤٤٩هـ/١٠٥٧م) كان عالما وكذا أباه، وكان أبوه يعظ بسمرقند فى خان موسى^(٤). والشيخ الإمام الزاهد الخطيب أبو محمد عبد الجبار بن أحمد الدارى كان آخر مجلس أملاه يوم الخميس من ذى القعدة سنة (٤٤٨ - ٤٤٩هـ / ١٠٥٦ - ١٠٥٧م) سنة الوباء العام، وتوفى بعده بقليل، ودفن فى الدار الجوزجانيه بسمرقند^(٥).

كان لعلماء سمرقند دور "فعال" فى المشاركة فى الأزمات وتخفيفها عن الناس، ولم يكونوا بمعزل عما يحدث فى المجتمع من تغيرات، ومما يؤكد ذلك ما قام به أبو المظفر ابن نصر بن أحمد بن محمد العابدى السمرقندى، عندما وقع قحط فى سمرقند، قال السمعانى: "كان أبوه دهقانا كثير المال وكان له ثلاثة مائة بعير تحمل غلاته وأمواله، وكان يعلم أنه لو فرقها على أهل سمرقند لم تكفهم، فوجد حلا وهو أن يخرج إلى درب سمرقند، ومن رأى من جلبة الطعام قال له: أعطيك درهمين وتحط من الثمن للناس وتبيع للناس بأقل من درهمين، فلم يزل كذلك حتى تراجعت الأسعار، ثم أخرج

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ٩، ص ٦٣٧.

(٢) ابن تغرى بردى: المصدر نفسه، ج ٥، ص ٦١.

(٣) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى والدينى والشقافى والاجتماعى، ج ٤، ص ١٨٠.

(٤) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص ٥٥٥.

(٥) النسفى: المصدر نفسه، ص ٤٠٢.

غلاته فباعها بنصف السعر فتوسعوا. فقال الناس: هذا عابد وليس بتاجر، فلقب بالعبدي، وتوفى سنة (٤٦١هـ/١٠٦٨م) ودفن بجاكرديزه^(١).

ولما حدث جذب وندر سقوط المطر في سمرقند في بعض الأعوام استسقى الناس مراراً فلم يسقوا، فأتى رجل صالح معروف عنه الصلاح إلى قاضي سمرقند فقال له: إني قد رأيت رأياً أعرضه عليك، قال: وما هو؟ قال أرى أن نخرج ويخرج الناس معك إلى قبر الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ونستسقى عنده، فعسى الله أن يسقينا، فقال القاضي: "نعم ما رأيت" فخرج القاضي والناس معه، واستسقى القاضي بالناس وبكى الناس عند القبر، وتشفعوا بصاحبه، فأرسل الله تعالى السماء بماء عظيم غزير أقام الناس من أجله بخرتك سبعة أيام أو نحوها، لا يستطيع أحد الوصول إلى سمرقند من كثرة المطر وغزارته^(٢).

يتضح مما تقدم مدى ارتفاع مكانة علماء الدين في نظر المجتمع، ومشاركتهم الفعالة في تخفيف تلك الأزمات. ولا شك أن هذه الأزمات التي أسلفنا ذكرها أدت بما لا يدع مجالاً للشك إلى ارتباك الحياة الثقافية في مدن إقليم الصغد لانشغال العلماء بتلك الأزمات عن الإنتاج العلمي.

صفوة القول أن هذه العوامل أدت إلى تقهقر الحياة الثقافية في مدن الصغد، ومع ذلك لا يمكن الربط بصورة مطردة بين الحياة السياسية والعقائدية والاقتصادية من ناحية والحياة الثقافية من ناحية أخرى، بمعنى ألا نربط بينهما ربطاً يفهم منه أنه كلما وجد انحلال سياسي وخلافات دينية وأزمات اقتصادية وجد بالضرورة انهيار حضاري أو تأخر ثقافي، فليس شرطاً

(١) السمعاني: الأنساب، ج٤، ص١٠٧، ١٠٨.

(٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٢، ص٢٣٤. السمعاني: الأنساب، ج٥، ص٣٨. ابن بشكوال: الصلة، ج٣، دار الكتاب المصري. دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٩، ص٩١٧.

أن تتحكم هذه العوامل تحكماً كلياً في الحياة الثقافية في إقليم الصغد وإن كان لها أثر سىء في رقى العلوم والآداب .

ثانياً: المؤسسات التعليمية في مدن الصغد

حض الإسلام على العلم وجعل من الواجب على المرء أن يتعلم ما لم يعلم، وأن يعلم ما قد علم، ولا عجب أن كان للدين الإسلامى وتعاليمه الفضل فى دفع الناس إلى تعلمه وتسابقهم على الاستزادة منه، ومن ثم كان طبيعياً أن يظهر فى أعقاب الاستقرار الإسلامى الكثير من المؤسسات التعليمية^(١) فحفل إقليم الصغد بالمؤسسات التعليمية المختلفة خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، والتي كان لها كبير الأثر فى إثراء الحياة الثقافية واتساع ثقافة العلماء وإمامهم بمختلف العلوم والفنون الراجعة فى عصرهم وزيادة إنتاجهم العلمى .

وتعد الأسرة^(٢) المؤسسة التعليمية الأولى فى حياة الإنسان، واللينة

(١) عبد الفتاح مصطفى غنيمه: نشأة المدارس وتطورها فى الحضارة العربية، منبر الإسلام، العدد ١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٧٢.

(٢) الأسرة فى اللغة هى عشيرة الرجل ورهطه، وسميت بهذا الاسم لما فيها من معنى القوة حيث يتقوى بهم الرجل، والأسرة هى أيضاً الدرع الحصينة، وفيها معنى القوة أيضاً، ذ لك أن مادة " اسر " تعطى معنى القوة والشدة، فالأسر هو شدة الخلق، كما قال تعالى " نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ " الإنسان: آية ٢٨. وأسر الجندي عدوه يعنى شده بالاسار، والاسار هو كل ما يشد بالقيد . والأسرة فى نظر الشرع هى الجماعة التى ارتبطت ركنها بالزواج الشرعى والتزمت بالحقوق والواجبات بين طرفيها، وما نتج عنهما من ذرية وما أتصل بهما من أقارب. والأسرة فى عرف الناس تطلق على كل جماعة بينها رباط من نوع معين. المقرئ: كتاب المصباح النير فى غريب الشرح الكبير للرافعى، ج١، ص ١٩، ٢٠. عطية صقر: موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، ج١، ط ٢، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٣٣.

الأولى فى بناء الهيكل الإنسانى العام أو الخلية الأولى فى جسم المجتمع البشرى، وكان للأسرة دور رئيسى فى غرس التربية الإسلامية التى تركز على الإيمان بالله ورسله والتحدى بالأخلاق الحميدة فى ذهن الطفل منذ نعومة أظفاره^(١).

والأسرة بهذا الاعتبار هى مصدر العادات والتقاليد، فالأدب والنظام والتعاون والأمانة والتكسب والإيثار أول ما يصنع فى الأسرة، ويتلقاه الوليد مع لبن أمه وفى غنائها له وخدمته إياه، ويخرج إلى المجتمع مزوداً بكل التأثيرات والانطباعات التى تلقاها فى مجتمعه الأول تحت إشراف الوالدين^(٢).

والأسرة أيضاً خلقت صفات جديدة فى الطفل أو الإسراع فى خلقها عن طريق القدوة والتقليد، كالنطق مثلاً وهو القوة الكامنة تبرزها الأسرة أو تسرع فى إبرازها بخلاف ما لوعاش فى غابة أو غير مجتمع إنسانى يشبه الأسرة المحدود، ويتعلم اللغة التى تمكنه من التعلم بخطوات سريعة، ويتلقى أصول العقيدة والأخلاق ويقوم بالعبادات المفروضة، ومن هذا المنطلق فالأسرة هى المدرسة الأولى، أو المصنع الأول لتخريج جيل أو نسل صالح لمتابعة التطور البشرى، ولا يجارها أى تنظيم فى هذه الأولية^(٣). وقد وضع الرسول ﷺ الدور الخطير الذى تقوم به الأسرة وتأثيرها العظيم على عقيدة الطفل ونظرته إلى الحياة بقوله "ما من مولود إلا ويولد إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه"^(٤) فالطفل يولد سويًا لديه القابلية ليكون مسلمًا موحداً

(١) رحيم كاظم محمد الهاشمى وعواطف محمد شنتقارو: الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٤٧.

(٢) عطية صقر: المرجع نفسه، ج١، ص ٣٩.

(٣) عطية صقر: موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، ج١، ص ٣٩. عمر أحمد غنام: المؤسسات التربوية، مجلة الثقافة الإسلامية، العدد ٤٠، ١٩٩١، ص ١٦١.

(٤) المنذرى: مختصر صحيح مسلم، تحقيق وتعليق مصطفى ديب البغا، ط ٢، اليمامة للطباعة، دمشق، ١٩٩٦، ص ٥٥٣.

لله لكن أبويه يجعلانه يهوديًا إذا كانا يهوديين أو نصرانيًا إذا كانا نصرانيين، وهما يتحملان عاقبة فعلهما، فيثابان إذا جعلا أولادهما مؤمنين صالحين، ويعذبان إذا حالاً بينهم وبين الإيمان وجعلاهم كافرين فاسقين، ولا إثم عليهما إن فعلا غاية وسعهما لتنشئة الأولاد على الإيمان والعبادة والخلق الحميد، وصار الولد طاغيا فاجرا^(١).

وكان محمد بن محمد بن الحسين المحدث عبد الكريم بن موسى بن الشيخ بن مجاهد العلامة أبو اليسر البزدوى النسفي (ت ٤٩٣هـ / ١٠٩٩م) شيخ الحنفية ببلاد ما وراء النهر خير ما يجسد ذلك فتلقى تعليمه الأولى على يد أبيه الذى لفته تعاليم جده عبد الكريم الذى تلقاها بدوره عن ماتريدى، ثم درس أبو اليسر على كبار علماء الحنفية، وكان إمام الأئمة والموفود إليه من الآفاق، كثرت تصانيفه فى الأصول والفروع، وكان قاضى قضاة سمرقند، وكان يدرس فى الدار الجوزجانية ويملى فيها الحديث^(٢).

لا يقتصر دور الأسرة على مرحلة الطفولة، بل يستمر طيلة مراحل العمر، وإن كان يعظم أثره فى تلك المرحلة ثم إن الوالدين هما أول من يجنى ثمرات التربية الصالحة والتعليم النافع لأولادهم وذلك حين يكبرون ويصبحون بارين بهم^(٣).

هكذا اهتم المسلمون بتربية وتعليم أولادهم، فالطفل صورة عائلته، وتربيته على الفضائل والخلق الحميد لا يمكن أن يكتسبها فى المعاهد التعليمية، إنما يمارسها الطفل يوم يعى الخطاب ويفهم الكلام وتلك هى مسؤولية الوالدين .

(١) عمر أحمد غنام: المقال نفسه، ص ١٦١ .

(٢) الذهبى: تاريخ الإسلام، ج ٣٤، ص ١٦٣، ١٦٤ . البزدوى: كتاب أصول الدين، تحقيق هانز بيتلنس، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ١١، ١٠ .

(٣) عمر أحمد غنام: المقال نفسه، ص ١٦٢ .

١ - الكتاتيب (١)

تعد الكتاتيب من أقدم المؤسسات التعليمية وجوداً عند العرب، عرفت في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام لتعليم صبيانهم القراءة والكتابة، لكن على نطاق محدود حيث اقتصر على أبناء الأغنياء والوجهاء (٢).

كانت نشأة الكتاب وتطوره في المقام الأول تجاوباً مع أنشطة المدينة الإسلامية الجديدة، إذ كانت معرفة الكتابة باللغة العربية أمراً ضرورياً للفقهاء في الدين، كما كانت مؤهلاً أساسياً لشغل المناصب الحكومية (٣). وكان هناك نوعان من الكتاتيب، نوع يتعلم فيه الصبيان القراءة والكتابة ومبادئ الحساب، والنوع الثاني لتعليم القرآن الكريم ومبادئ الدين الإسلامي (٤).

ولا يعنى هذا بالضرورة أن كل كتاب كان من أحد هذين النوعين، بيد أن معظم الكتاتيب كانت تعلم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب والقرآن الكريم

(١) الكتاب اشتق اسمه من التكتيب وتعليم الكتابة، وهي المهمة التي اضطلع بها، ويؤيد ذلك ما ورد عند اللغويين من أن الكتاب موضع تعليم الكتاب، أي الكتابة. وذهب بعض اللغويين إلى أن الكتاب من مواضع التعليم ويرادف المكتب، بينما عبر البعض الآخر بأن الكتاب بمثابة موضع لتعليم الصبيان. ويظهر أن كلا من المكتب والكتاب استعمل كمكان لتعليم الصبيان. سعيد إسماعيل على: معاهد التربية الإسلامية، ص ١٢٥. محمد الحسينى عبد العزيز: الحياة العلمية في الدولة الإسلامية، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٣، ص ٣٣، ٣٢. المعجم الوجيز، مصر، ١٩٩٧، ص ٥٢٧. ذبيح الله صفا: تاريخ تعليم وترتيب إيران از قرن هفتم تا قرن دهم، مجلة مهر، شماره دوم، سال چهارم، ١٣١٥، ص ١٥٨.

(٢) رحيم كاظم محمد الهاشمى وعواطف محمد شنقارو: الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٤٧.

(٣) هشام نشابى: المدينة الإسلامية، ص ٧٣.

(٤) أحمد شلبى: تاريخ التربية الإسلامية، ص ٢٢-٢٥.

واللغة^(١)، بحيث كان التركيز منصبا على القرآن الكريم والعلوم الدينية^(٢).

لم يجر التعليم في داخل المساجد، إذ لا يجوز أن يرتاد الأطفال المساجد لأن النبي ﷺ أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين لأنهم يسودون حيطانها ولا يتحرزون من النجاسات، وبالتالي أتخذ بعض المعلمين من الدروب وأطراف الأسواق والمناطق القريبة من المساجد والغرف الملحقة بها أماكن لتعليم الصبيان^(٣).

أما عن أعمار الصبية الذين يرتادون الكتاتيب فكانت تتراوح بين الخامسة والسابعة عند الالتحاق^(٤)، ويرى ابن سينا أن العام السادس من عمر الصبي هو المرحلة الملائمة لدخوله الكتاب وذلك بقوله: " وإذا أتى عليه من أحواله ست سنين فيجب أن يقدم إلى المؤدب والمعلم"^(٥).

تنوعت مناهج الدراسة في الكتاتيب فلم تكن واحدة في العالم الإسلامي، بل اختلفت من قطر إلى آخر كما ذكر ذلك ابن خلدون " إن ما

(١) هشام نشاي: المرجع نفسه، ص ٧٣.

Hillenbrand , Madrasahs Islamic Period ,vol.2 , p166.

(٢) بهروز رفيعي: تعليم وترتيب در اسلام، تهران، ١٣٧٨، ص ١١٢.

Yamin Cheng , The Islamic Sciences and Question of the Modern Muslim Identity, the Islamic Quarterly, vol.47, no.1, 2003,p38.

(٣) أبو بكر السمرقندي: شرعة الإسلام إلى دار السلام، ص ٨٥. جروينيام: حضارة الإسلام، ص ٢٧٨. سعد مرسى أحمد و سعيد إسماعيل على: تاريخ التربية والتعليم ص ١٧١. ذبيح الله صفا: تاريخ تعليم وترتيب إيران از قرن هفتم تا قرن دهم، مجلة مهر، شماره دوم، سال چهارم، ١٣١٥، ص ١٥٧.

(٤) أحمد فؤاد الاهواني: التربية في الإسلام، ص ٥٩. عبد الباري محمد الطاهر: خراسان وما وراء النهر، ص ١٦٣.

(٥) ابن سينا: القانون، ج١، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٨٧٧م، ص ١٥٧.

درسه الولدان اختلف من قطر إسلامي لقطر آخر، ولكن يلوح أن الدراسة اشتملت على القرآن وأحاديث الأخبار وبعض الأحكام الدينية والشعر، ومبادئ الحساب، وبعض قواعد اللغة العربية إلى جانب تعلم القراءة والكتابة والخط الذي كان له مدرسون مختصون، واستعمل الصبية الألواح في الكتابة، وفي المغرب العربي اقتصر التعليم على القرآن الكريم، وفي الأندلس اعتمد على تعليم القرآن والشعر واللغة والخط، بينما كان أهل المشرق يخلطون في تعليم أبنائهم بين القرآن والحديث والعلوم والخط^(١).

كان لكل كتاب معلم واحد، ولكن في بعض الحالات كان يشترك معلمان أو أكثر في التعليم بالكتاب إذا كان عدد الصبيان كثيراً^(٢) وكانت عادة الكتاتيب أن تبدأ يومها الدراسي منذ الصباح، فيذهب الصبي إليه مبكراً فيبدأ بحفظ القرآن ثم يتعلم الكتابة حتى الظهيرة فيعود إلى المنزل لتناول الغداء، ثم يرجع لمواصلة الدرس حتى أذان العصر، وكانت العطلة الأسبوعية من بعد ظهر الخميس إلى صباح السبت^(٣).

كانت الذاكرة القوية أهم مؤهلات الصبي الدراسية التي تمكنه من الحفظ، وفي هذا الصدد يقول ابن جبير: "وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين، ويعلمون الأشعار وغيرها تنزيها لكتاب الله عن ابتذال الصبيان له بالإثبات والمحو" وقد يكون في أكثر البلاد الملقن على حدة، والمكتب على حدة فينفصل من التلقين إلى التكتيب^(٤). وكان نظام

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج١، ص٥٣٩، ٥٣٨. رحيم كاظم محمد

الهاشمي وعواطف محمد شنقارو: الحضارة العربية الإسلامية، ص١٤٧.

(٢) أحمد فؤاد الأهواني: المرجع نفسه، ص٥٩. هشام نشاى: المدينة الإسلامية، ص٧٣.

(٣) أحمد فؤاد الأهواني: التربية في الإسلام، ص٦٥. عبد البارى محمد الطاهر: خراسان

وما وراء النهر، ص١٦٤.

(٤) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ط٢، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٨،

ص٢٢٦. ملكة أبيض: التربية والثقافة العربية الإسلامية، ص٢٦٠.

الكتاتيب شعبيًا بالدرجة الأولى ولم تتدخل الدولة فيه^(١) إلا في حالة واحدة وهي أن يضرب المعلم الصبيان ضربًا مبرحًا، فيقوم المحتسب بالتدخل^(٢).

وإذا أتم الصبي مرحلة التعليم في الكتاب يمتحنه المعلم فيما حفظ من القرآن وفي الكتابة، فإذا اجتاز الامتحان احتفل بالختمة ليواصل دراسته لتلقى مرحلة تعليمية أعلى من التعليم في الكتاب أو ينقطع عن التعليم ويتجه إلى الصناعة التي يريد أن يزاولها^(٣).

اشتهر من معلمى الصبية فى الصغر عدد غير قليل وذاع صيت بعضهم، ومنهم محمد ابن أبى عدى أبو صالح الأزدي السمرقندى المؤدب توفى سنة (٤٤٤هـ/١٠٥٢م)^(٤) والشيخ الأديب أبو الحسن على بن أبى طاهر المطوعى كان يؤدب على رأس سكة عجلان بسمرقند توفى بعد سنة (٤٩٥هـ/١١٠١م)^(٥) ومن العلماء الذين اشتهروا أيضا بتعليم الصبيان الأديب أبو الفضل محمد بن عمر بن محمد الجنبذى تفقه على الإمام مسعود بن الحسين الكشانى، وكان يسكن سمرقند ويؤدب الصبيان بها، سمع منه السمعانى^(٦).

وكذلك الشيخ أبو الحسن على بن الحسن بن على بن الحسن المستملى استقضى بساغر - من قرى سمرقند على خمسة فراسخ منها - جلس لتعليم القرآن موضع أبيه فى مكتبه، توفى فى النصف الأول من

(١) عبد البارى محمد الطاهر: المرجع نفسه، ص ١٦٣

(٢) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٥٩.

(٣) أحمد فؤاد الاهوانى: المرجع نفسه، ص ٦٥. عبد البارى محمد الطاهر: المرجع نفسه،

١٦٤. رحيم كاظم محمد الهاشمى وعواطف محمد شنقارو: الحضارة العربية

الإسلامية، ص ١٤٩

(٤) المقرئى: كتاب المقفى الكبير، ص ٢٢٥.

(٥) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص ٥٦٩.

(٦) ابن الأثير: اللباب فى تهذيب الأنساب، ج ١، ص ٢٩٤.

(ق ٦٦هـ / ١٢م) ^(١) والشيخ أبو الحسن علي بن محمد ابن عمرو المؤدب الياركتي صاحب شرح المقامات، دخل سمرقند وحدث بها، توفي في النصف الأول من (ق ٦٦هـ / ١٢م) ^(٢).

جرى العرف في القرون الإسلامية الأولى أن ينتدب الأغنياء وميسورو الحال معلمين خاصين للتدريس لأبنائهم بدلاً من إرسالهم إلى الكتاتيب ^(٣)، حيث كان الوالد يشترك في تخطيط وتحديد ما يتعلمه ابنه من معلمه الخاص ^(٤)، وكان هؤلاء المؤدبون يقومون بمثل العمل الذي يقوم به المعلم في الكتاب، فيعلمون تلاميذهم أصول الدين وحسن الأدب وفن النظم ^(٥) وما يؤهلهم لتحمل الأعباء التي سينهضون بها في المستقبل ^(٦).

وكان الشيخ أبو الحسن علي بن إبراهيم بن علي الأديب الخليل من المؤدبين المشهورين، قال النسفي: "كان مؤدب أستاذينا" توفي سنة (٤٥٣هـ / ١٠٦١م) ^(٧). والشيخ الفقيه الأديب الحجاج أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد السني النسفي الكسبوي، دخل سمرقند وسمع بها الحديث، وكان مؤدب عمر النسفي، وتوفي سنة (٤٨٥هـ / ١٠٩٢م) ^(٨) وكان بعض المؤدبين يقيمون في القصور حيث خصص لهم جناح للإقامة حتى يتم إشرافهم على تربية الأولاد ^(٩).

(١) النسفي: القند في ذكر علماء سمرقند، ص ٥٧٨

(٢) النسفي: المصدر نفسه، ص ٥٤٨.

(٣) أحمد فؤاد الأهواني: التربية في الإسلام، ص ١٢. حسين أمين: المدرسة المستنصرية، بغداد، ١٩٦٠م ص ١٦.

(٤) أحمد جاب الله شلبي: التعليم والتربية عند المسلمين، مج ١، ص ٥٤.

(٥) فليب حتى: تاريخ العرب، ج ٢، ص ٤٩٥.

(٦) أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص ٣٦.

(٧) النسفي: المصدر نفسه، ص ٨٠.

(٨) النسفي: المصدر نفسه، ص ٥٧٢.

(٩) سعد مرسي أحمد وسعيد إسماعيل علي: تاريخ التربية والتعليم، ص ١٧٢.

ومن ثم كانت وظيفة مؤدب الخاصة مهمة، تضع من يشغلها فى مكانة عالية وتخلع عليه حلة من الجلال^(١) بخلاف معلمى الكتاتيب الذين حرموا من تلك المنزلة على الرغم من تولى بعض العلماء البارزين لهذه المهنة، وكانوا موضع السخرية أحيانا^(٢) وفى الأدب العربى طائفة كبيرة من النوادر المبنية على الاعتقاد بأن المعلم بليد أو أحمق بحيث ضرب به المثل، وسخر الجاحظ منهم وقال من أمثال العامة: "أحمق من معلم كتاب" وكيف يرجى العقل والرأى عند من يروح على أنثى ويغدو على طفل. وقال بعض الحكماء: "لا تستشيروا معلما، ولا راعى غنم، ولا كثير القعود مع النساء"^(٣) وقال الشاعر: معلم صبيان وصاحب دره وليس له عقل بمقدار ذرة^(٤).

من هذا المنطلق كانت حياة معلم الكتاب كثيرا ما يحف بها الضيق والبؤس، لأن العائد المادى كان بسيطا، وأحيانا يقوم بها المعلم دون مقابل ابتغاء مرضاة الله واقتداء برسوله^(٥). وقال البيهقى: "إذا كنت وراقا فأنت محارف وحسبك أن تكون معلما" فكان يرى أن أخذ أجر على التعليم يجوز رغم كراهة ذلك^(٦). ورغم كثرة الأقاويل التى تحط من مكانة معلم الكتاب، فلا يمكن إنكار الدور السامى الذى يقوم به، فهو يعد بحق أساس العملية التعليمية لما يقوم به من تنمية قدرات الصبيان على التعلم ويساعدهم للمضى قدما فى التعليم.

(١) أحمد شلبى: المرجع نفسه، ص ٤٠.

(٢) منير الدين أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم، ص ٥٢، ٥٣.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق فوزى عطوى، ج١، دار صعب، بيروت، ص ١٣٦.

(٤) القيسى: شرح مقامات الحريرى، مع ٣، ص ٣٦٤.

(٥) جروينام: حضارة الإسلام، ص ٢٧٨. شوقى ضيف: العصر العباسى الثانى، ص ١١٦.

محمد الحسنى عبد العزيز: الحياة العلمية فى الدولة الإسلامية، ص ٣٣، ٣٤.

(٦) البيهقى: كتاب المحاسن والمسائى، تصحيح السيد محمد بدر الدين الحلبي، ج٢،

مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٠٦، ص ٢١٦.

يمثل التعليم فى الكتاب المرحلة الأولى من مراحل الدراسة، حيث ينتقل الصبى بعد إكماله لهذه المرحلة إلى مرحلة تعليم أعلى.

٢- المساجد^(١)؛

قامت المساجد بدور عظيم فى التربية والتعليم، حيث كانت مرحلة أعلى من الكتاتيب^(٢)، وحث الإسلام على ارتياد المساجد فقال ﷺ: "إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان"^(٣) فضلا عما قامت به المساجد فى مدن إقليم الصغد من دور كبير فى إذكاء الحركة الثقافية، فكانت منار العلم إذ يعد المسجد من المؤسسات الثقافية الأولى، وذلك لأن العلوم فى سنى الإسلام

(١) المسجد: لغة اسم لمكان السجود. والمسجد شرعا كل موضع من الأرض لقوله ﷺ: "جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا" وهذا من خصائص هذه الأمة*. والمسجد بالكسر اسم لمكان السجود، والمسجد بالفتح جهة الرجل حيث يصيبه السجود. والمسجد بكسر الميم الخمرة وهى الخصر الصغيرة*. ولما كان السجود أشرف أفعال الصلاة لقرب العبد من ربه اشتق اسم المكان منه فقيل مسجد، ولم يقولوا مركع. ثم إن العرف خصص المسجد بالمكان المهيأ للصلوات الخمس***. وورد المسجد والمساجد فى القرآن الكريم بلفظها ثمانيا وعشرين مرة****. والمسجد من الألفاظ الإسلامية التى لم تعرفها الجاهلية. فالاسم والمسمى جاء مع الدين الجديد ودلا على مصلى الجماعة*****.

*الزركشى: إعلام الساجد بأحكام المساجد، تحقيق أبى مصطفى المراغى، ط ٢، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٢٦، ٢٧. المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٤، ص ٢٦٣.

** إيد الصقر: الفنون الإسلامية، ص ١٨٧.

*** الزركشى: المصدر نفسه، ص ٢٨. إيد الصقر: المرجع نفسه، ص ١٨٧.

**** حسين مؤنس: المساجد، ص ١١. طه الولى: المساجد فى الإسلام، ص ١٤٠.

***** زين العابدين شمس الدين نجم: معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، ص ٤٩٠.

عبد الرحيم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، ص ٣٨١.

(٢) عمر أحمد غنام: المؤسسات التربوية، ص ١٦٦.

(٣) ابن ماجه: سنن ابن ماجه، ج ١، ص ٢٦٣.

الأولى كانت علومًا دينية تشرح تعاليم الدين الجديد وتوضح أسسه وأحكامه وأهدافه، وهذه تتصل بالمسجد أوثق اتصال^(١) كما قال عز من قال " فِي بِيوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لِأَتْلِهِمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعٌ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ " (٢).

ارتبط تاريخ التربية الإسلامية بالمسجد ارتباطًا وثيقًا، ذلك أن وظيفته لم تقتصر على تأدية الصلاة فحسب، بل امتدت لتشمل مهمة التربية ورسالة التعليم^(٣)، وتعددت وظائفه فضلًا عن ارتباطه بكثير من الأوضاع الحضارية والتطورات والأحداث السياسية في تاريخ الدولة الإسلامية^(٤). كان من التقاليد الإسلامية في إنشاء أية مدينة من المدن الجديدة التي أقامها المسلمون في المشرق والمغرب جميعًا هي اختيار مكان المسجد الجامع في وسطها^(٥).

ويعد الجامع الذي بناه القائد قتيبة بن مسلم الباهلي في مدينة سمرقند

(١) أحمد جاب الله شلبي: التعليم والتربية عند المسلمين، مج ١، ص ٥٨. أحمد شلبي: تاريخ

التربية الإسلامية، ص ٨٤

(٢) النور: آية، ٣٦، ٣٧.

(٣) أحمد رمضان: حضارة الدولة العباسية، ١٩٧٨، ص ١٣٦، ١٣٥. سعد مرسى أحمد

وسعيد إسماعيل على: تاريخ التربية والتعليم، ص ١٧٢. سعيد أحمد حسن: أنواع

المكتبات في العالمين العربي والإسلامي، ص ٧٩. غوستاف لوبون: حضارة العرب،

ص ٤٢٥. يوسف محمود: الإنجازات العلمية في الحضارة الإسلامية، ص ٧٧

(٤) محمد ماجد خلوصي: عمارة المساجد، القاهرة، ١٩٩٨، ص ١٠.

(٥) أمين مدني: الثقافة الإسلامية وحواضرها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠،

ص ٢٥٥. حسن على حسن والتوم الطالب محمد: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية،

الكويت، ١٩٨٦، ص ٣٠١. سعيد عبد الفتاح عاشور: المؤسسات العربية والإسلامية

ودورها الحضاري، الفن العربي الإسلامي، ج ١، تونس، ١٩٩٤، ص ٨٤.

حين فتحها^(١) بمثابة محور الحياة فيها والقلب المنظم لكافة ألوان النشاط بين ربوعها، ومن هذا المنطلق كان المسجد أول دعامة من دعائم المجتمع الإسلامي في سمرقند، وكان نظام الحلقات^(٢) هو نظام الدراسة الممتازة بالمساجد في الصغد، وكان هذا النظام تقليداً ظلت الأجيال تتوارثه منذ أن جلس رسول الله بالمسجد معلماً^(٣).

أما النظام المتبع في الحلقة فهو أن يجلس الشيخ بجانب عمود من أعمدة المسجد ويجلس حوله طلابه على شكل حلقة أو دائرة^(٤) بترتيب معين، فلكل طبقة مكان، فيجلس المعيدون والممتازون من الزوار على يمين الشيخ ويساره، وكانت العادة أن يحرص كل فرد على أن يجلس قريباً من الشيخ ولكن بشرط ألا يتعدى المكان الذي هو أهل له^(٥)، ثم تطورت الحلقات عبر العصور وصار موضع العالم يتميز بالسجادة التي يصلى عليها.

(١) الصنعاني: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار وعجائب الأخبار ومحاسن الأعشار وعيون الآثار، تحقيق محمد بن علي بن الحسين الكويع الجوالى، صنعاء، ١٩٨٥، ص ١٨٣. أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى: الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والقوقاز، ص ١٣. حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية بين الفتحين العربى والتركى، دار الفكر العربى، ١٩٩٨، ص ١١٦.

Knobloch, Beyond the Oxus, p24.

(٢) الحلقة: صفوف دراسية دائمة ذات عدد محدود من الطلاب يدرس فيها مختلف العلوم الدينية. بهروز رفيعى: تعليم وترتيب در اسلام، ص ١١٢. منير الدين أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين، ص ٥٤.

(٣) سعيد إسماعيل على: معاهد التربية الإسلامية، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٢٢٤. يوسف محمود: الإنجازات العلمية فى الحضارة الإسلامية، ص ٧٨.

(٤) آدم متز: الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٢٣٢. ملكة أبيض: التربية والثقافة العربية الإسلامية، ص ٢٦٦. ول ديورانت: قصة الحضارة، ج ٢، ص ٤، ص ١٦٨.

(٥) سعيد إسماعيل على: المرجع نفسه، ص ٢٢٥.

وانقسم أصحاب الحلقات حسب أماكنهم في المساجد إلى أصحاب الكراسي وهم القصاص وأصحاب الزوايا وهم أهل المعرفة^(١)، واستمر هذا الشكل من التدريس حتى بعد إنشاء المدارس، كما أنه لا يزال معمولاً به في بعض أقطار العالم الإسلامي، ولم يصحبها تغيير سوى الأمور المتعلقة بوجود إدارة لمؤسسات دائمة للتعليم^(٢).

كانت المساجد مفتوحة بدورها يقصدها من يأنس في نفسه الكفاءة لتعليم الناس، وظل العلماء يقصدون المساجد ليؤدوا هذا العمل دون انتظار من يحثهم على الذهاب، وظل الناس يلتفون حولهم ويأخذون عنهم من غير أن تتدخل الحكومات في ذلك، ولكن بدأ تدخل الحكومة في التعليم عندما اقترح القائمون بالأمر موضوعاً معيناً ليدرس، وبالأحرى عندما شيدت الحكومات معاهد تعليمية، وعينت لها المدرسين ونظمت لهم الأجور، وبهذا وذاك بدأ تدخل الحكومة في التعليم^(٣)، وكانت الحكومة قبل ذلك لا تتدخل في الحركة التعليمية وكان يقتصر تدخلها على التأكد من عدم تعارض ما يجرى في هذه الدراسة من مناقشات مع الدين وسياسة الدولة^(٤). وكان كل مسجد بمثابة جامعة تتألف من عدة كليات، فكان المسجد الواحد يضم من حلقات العلم العديد منها حلقات لتعليم الفقه، وهناك لتعليم الحديث وأخرى لتدريس علم الكلام^(٥).

(١) ناجي معروف: أصالة الحضارة العربية، ص ٣٥٤.

(٢) منير الدين أحمد: المرجع نفسه، ص ٥٤.

(٣) أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص ١٩٣، ١٩٤.

(٤) عصام عبد الرؤوف الفقى: تاريخ الفكر الإسلامي، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠١،

ص ١٨٣، ١٨٢. هشام نشابى: المدينة الإسلامية، ص ٧٦.

(٥) خالد عزب: التراث الحضارى والمعمارى للمدن الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٣،

ص ١١٨. شوقى ضيف: العصر العباسى الثانى، ص ١١٧، ١١٨. عبد الله الجرارى:

تقدم العرب فى العلوم والصناعات، ص ٢٤١.

لم تقتصر الدراسة في المساجد على القرآن والحديث والفقه، وإنما شملت اللغة وآدابها والتاريخ والجغرافيا وغيرها من العلوم^(١). وأحب طالب العلم مجالسة العلماء، وكان عليه أن يتحلى بأدب وتواضع، ولا يضجرهم في السؤال، ولا يناظرهم مناظرة من يريهم أنه أعلم منهم، وإنما هدفه البحث لطلب الفائدة منهم ويحسن توقيير العلماء حتى يزداد به عند الله فهما في دينه^(٢)، وليحذر طالب العلم أشد الحذر أن يمارى أستاذه فإن المرء شر كله، وعليه أن يحترم الشيخ في كل الحالات حتى لو قام بتوبيخه بسبب ما فيه من نقيصة، أو كسل يعتريه، وعلى الطالب أن يلتزم السكون والوقار في مجلس العلم^(٣). كما كان لجلوس العلماء والفقهاء في المساجد وقيامهم بمهمة التدريس شروط، منها أن يكون كل واحد منهم زاجرا من نفسه، وأن لا يتصدى لما ليس بأهل له، فيضل به المستهدى وينزل به المسترشد، وجاء في الأثر " أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على جرائم جهنم " وينبغي للرجل إذا حمل نفسه على الفتيا أن يكون عالما بوجوه القرآن، عالما بالأسانيد الصحيحة، عالما بالسنة^(٤).

على أية حال ازدهرت المساجد في إقليم الصغد وأصبحت مركزا علميا من أكبر مراكز التعليم والتدريس آنذاك، وجذبت إليها الطلاب من جميع

(١) أحمد شلبي: المرجع نفسه، ص ٩٣. حسين أمين: المدرسة المستنصرية، ص ١٣. ناجي

معروف: أصالة الحضارة العربية، ط ٣، بيروت، ١٩٧٥م، ص ٣٥٤. عمر أحمد غنام:

المؤسسات التربوية، ص ١٦٦.

(٢) أبو بكر محمد بن الحسين الاجرى: أخلاق العلماء، تحقيق أحمد عبد الرحيم السايح،

ط ٢، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٣، ص ٥١، ٥٢.

(٣) أبو عبد الله محمد بن سعيد بن رسلان: آداب طالب العلم، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٧٥،

٨١.

(٤) ابن الفراء الحنبلي: الأحكام السلطانية، تعليق محمد حامد الفقى، دار الكتب العلمية،

بيروت، ١٩٨٣، ص ٢٢٦.

أنحاء العالم الإسلامي، وكانت تلك المساجد تزدان بكثرة حلقاتها العلمية التي يترأسها الفقهاء ورجال العلم للدراسة والمناظرة. ومن المساجد التي اشتهرت بحلقات العلم، المسجد الجامع في سمرقند^(١)، ومسجد البكرين^(٢)، ومسجد بلال بن إسماعيل المقرئ^(٣)، ومسجد سكة أبي عبد الرحمن^(٤) ومسجد سكة عباد^(٥)، ومسجد عز في آخر سكة رشتوج^(٦)، ومسجد العطارين^(٧)، ومسجد مقابل^(٨)، ومسجد المنارة^(٩).

اشتهر بعض العلماء بملازمتهم للتدريس والوعظ بالمساجد وكانت لهم حلقات علم، منهم الشيخ الحاكم الإمام أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد ابن الحسن الاسترابادي من كبار أئمة الحديث بسمرقند، كان له مجلس إلقاء بمسجد المنارة، توفي سنة (٤٣٢هـ / ١٠٤٠م)^(١٠). والشيخ أبو نصر سفيان ابن عبد الله بن محمد بن أحمد السرخسي المدني كان له مجلس إلقاء بمسجد المنارة، توفي سنة (٤٣٢هـ / ١٠٤٠م)^(١١). وأبو القاسم علي بن

(١) الحريري: مقامات الحريري، ص ٢٠٨. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٨، ص ٦٤.

السمعاني: الأنساب، ج ٥، ص ٢٦٠.

(٢) النسفي: القند في ذكر علماء سمرقند، ص ٤٥١.

(٣) النسفي: المصدر نفسه، ص ١٠٦.

(٤) النسفي: المصدر نفسه، ص ٥٤٠.

(٥) النسفي: المصدر نفسه، ص ٣٨٩.

(٦) النسفي: المصدر نفسه، ص ٥٤٢.

(٧) السمعي: المصدر نفسه، ج ٥، ص ٤٦١. القرشي: الجواهر المضية، ج ٣، ص ٣٣٦.

(٨) النسفي: المصدر نفسه، ص ٣٦٧.

(٩) الاسنوي: طبقات الشافعية، ج ١، ص ٢٨٧. السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٧،

ص ٤٠.

(١٠) النسفي: المصدر نفسه، ص ٥٤٥.

(١١) النسفي: المصدر نفسه، ص ٢٣٣.

أحمد بن الحسين بن محمد بن الفارسي، له مجلس إمامة بمسجد المنارة، توفي سنة (٤٤٤هـ/١٠٥٢م)^(١). كما كان الحافظ أبو الحسن علي بن أحمد ابن محمد بن ریحان الترمذی من كبار أئمة الحديث، سكن سمرقند، وعقد مجالس الإمامة في مسجد رأس سكة أبي عبد الرحمن في سكة حائط كوسكان بسمرقند، توفي سنة (٤٤٧هـ/١٠٥٥م)^(٢). والشيخ أبو محمد عبد الخالق بن أبي مالك البلخي الصوفي، كان له مجلس إمامة بمسجد المنارة، توفي سنة (٤٤٨هـ/١٠٥٦م)^(٣). والشيخ أبو محمد عبد الصمد بن إبراهيم بن الفضل بن أحمد بن الليث الحنظلي، كان له مجلس إمامة بمسجد سكة عباد بسمرقند، توفي (٤٥٥هـ/١٠٦٣م)^(٤).

كذلك كان أبو حفص عمر بن منصور بن أحمد بن محمد بن منصور بن موسى بن أفلح بن عمران البزاز الدهقان البخاري المعروف بابن خنب من كبار الحفاظ، حدث بمسجد المنارة بصحيح البخاري^(٥)، وكانت له حلقة إقراء بمسجد سكة مقاتل، واختلف إليه الأئمة ومنهم أبو محمد عبد الرحمن ابن أحمد بن محمد بن العباس بن إسماعيل بن أحمد المقرئ الهروي الساكن سمرقند سمع بقراءته، توفي الحافظ أبو حفص سنة (٤٦١هـ/١٠٦٨م)^(٦).

ومن أشهر العلماء الذين جلسوا للتدريس في مساجد سمرقند، محمد بن عبد الكريم بن عبد بن عيسى بن اليمان بن تمام بن عبد الرحمن بن عبيد الله الزيركي أبو البديع الإمام الحاكم من أهل سمرقند كان يدرس ويملي

(١) النسفي: القند في ذكر علماء سمرقند، ص ٥٤٧.

(٢) النسفي: المصدر نفسه، ص ٥٤٠.

(٣) النسفي: المصدر نفسه، ص ٣٨٧.

(٤) النسفي: المصدر نفسه، ص ٣٨٩.

(٥) النسفي: المصدر نفسه، ص ٤٧٩.

(٦) النسفي: المصدر نفسه، ص ٣٦٧.

الحديث بمسجد العطارين (ت ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م) ^(١). والشيخ أبو المعالي محمد بن محمد بن زيد من كبار العلماء، جلس للإملاء في جامع سمرقند، وحضر مجلسه فحول العلماء منهم الشيخ أبو نعيم عبد الرحمن بن الحسين ابن محمد العامري النسفي ^(٢). كما عقد الشيخ أبو المعالي محمد بن محمد مجلساً للإملاء في مسجد المنارة وحضره عبد الملك بن عبد الرحمن بن بكر ابن خالد الكرميني، وتوفي الشيخ سنة (٤٩١هـ / ١٠٩٧م) ^(٣). كما كان أبو الحسن إدريس بن حمزة بن علي الشافعي الرملي من فحول الأئمة فقيها فاضلاً، استوطن سمرقند، وفوض إليه تدريس الفقه على المذهب الشافعي في مسجد المنارة، وكان علماء سمرقند تعظمه ويهابون الكلام معه لفصاحته وفضله، توفي سنة (٥٠٤هـ / ١١١٠م) ^(٤).

وكان الشيخ أبو بكر أحمد بن محمد بن الفضل الفارسي يعقد مجلساً علمياً للإملاء بمسجد المنارة بسمرقند وتوفي سنة (٥٢٥هـ / ١١٣٠م) ^(٥). والشيخ أبو محمد يوسف بن علي بن العباس بن أبي بكر بن صالح بن جعفر ابن محمد بن سالم النجانيكثي الاسروشنى، كان مقيماً بسمرقند ويدرس للطلاب بمسجد العطارين، توفي سنة (٥٢٧هـ / ١١٣٢م) ^(٦). ومحمد بن عبد الخالق بن عبد الوهاب بن سلمة السمرقندى، كان إماماً مبرزاً ورعاً حسن السيرة كان له حلقة يوم الجمعة في جامع سمرقند، وكان يحدث، قال السمعاني: سمعت منه أحاديث يسيرة، توفي سنة (٥٥١هـ / ١١٥٦م) ^(٧).

(١) القرشى: الجواهر المضية، ج ٣، ص ٣٣٦.

(٢) النسفي: المصدر نفسه، ص ٣٧٠.

(٣) النسفي: القند في ذكر علماء سمرقند، ص ٣٨٣.

(٤) الاسنوى: طبقات الشافعية، ج ١، ص ٢٨٧. السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٧، ص ٤٠، ٤١.

(٥) النسفي: المصدر نفسه، ص ١٠٥.

(٦) السمعاني: الأنساب، ج ٥، ص ٤٦١.

(٧) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٨، ص ٦٤. السمعاني: المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٠٤.

خلاصة القول ازدانت مساجد سمرقند بحلقات العلماء، وشهدت الكثير من حلقات أصحاب الحديث، ولم تكن هذه الحلقات تخص شخصا معينا، بل كان بإمكان أى شيخ راغب فى التحديث أن يحدث فيها، كما زخرت بحلقات الفقه والمناظرة والقراءات. ولا شك أن هذه الحلقات أسهمت إسهاما كبيرا فى التطور الفكرى والتعليمى فى العصر السلجوقى. وجديراً بالذكر أن المسجد حافظ على مكانته كمركز إشعاع علمى، رغم انتشار المدارس فى سمرقند وسائر مدن الصغد خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، وظل للمسجد دوره الرائد وبخاصة فى العلوم الدينية التى ترتبط بطبيعة المسجد، فكان ولا زال ملتقى العلماء وطلاب العلم، وقال ابن الحاج فى هذا الصدد: "مواضع التدريس ثلاثة، البيت والمدرسة، والمسجد، وقال إن المسجد أفضلها جميعا، لأن الفائدة من التدريس أن تظهر به سنة، أو تخمد به بدعة، أو يتعلم به حكم من أحكام الدين، والمسجد خير مكان تتوفر فيه هذه الفوائد، لأنه موضع مجتمع من الناس" (١).

هكذا أقبل طلاب أهل سمرقند على العلم يحثهم فى ذلك قول رسول الله ﷺ "ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده" (٢). لذلك شهدت المساجد فى مدن الصغد نشاطا علميا واسعا، وما يؤكد كثره المحدثين والفقهاء والقراء وتلامذتهم. واستمرت المساجد فى نشاطها العلمى جنبا إلى جنب مع المدارس بعد نشوئها.

(١) ابن الحاج: مدخل الشرع الشريف على المذاهب، ج١، القاهرة، ١٩٢٩، ص ٨٥.

(٢) القرطبي: بهجة المجالس، وأنس المجالس، وشحد الذاهن والهاجس، ص ٥١، ٥٠.

٣ - المدارس (١)

كان التعليم في مدارس مدن الصغد امتداداً لحركة التعليم في المساجد (٢). وتمثل المدرسة أسمى إنجازات النظام التربوي الإسلامي الذي وصلت إليه، فلم تظهر المدرسة فجأة، وإنما هي مرحلة متقدمة في سلسلة التطورات التي مرت بها حركة التعليم، ونضوجاً لفكرة راودت أصحابها عبر مالا يقل عن أربعة قرون (٣).

انتشرت المدارس نتيجة لازدحام المساجد بحلقات العلم، وكان ينبعث من كل حلقة من هذه الحلقات صوت المدرس يلقي الدرس وأصوات الطلاب

(١) لفظ المدرسة من الألفاظ المولدة المشتقة عند العرب، فقد ورد في قولهم ' هذه مدرسة النعم ' أى طريق النعم وللفعل ' درس ' معان عديدة، فهو يأتي بمعنى: قرأ، كما فى قوله تعالى ' وَدَرَسُوا مَا فِيهِ * ' أى قرأوا ما فيه، ويأتى بمعنى: انمحي، كقولنا: درست هذه الآثار، أى انمحت . وأخذ الجاهليون مصطلح مدارس من العبرانيين من لفظ مدرائر التى هى من أصل درش التى تقابل درس فى اللغة العربية. ويقصد بالمدرائر درس نصوص التوراة، وشروحها وتفسيرها. وبناء على هذا يرجح أن المدرسة من المشتقات الحديثة فى صياغتها ولفظها، على أساس أن العرب لم يشتقوا قديماً من الفعل درس* . والمدرسة فنيا هى مكان يدرس فيه لعدد معين من الطلاب على أيدي أساتذة مخصوصين مواد دراسية معينة ذات مستوى معين، فهى بهذا التعريف ذات اختصاص ولها منهاج محدد معين والدراسة فيها منظمة ومنتظمة***. والثابت أن التعليم لم يعرف المدرسة بمعناها الفنى والاصطلاحى إلا بعد أكثر من ثلاثة قرون من ظهور الإسلام****.

* الأعراف: ١٦٩.

** سعيد إسماعيل على: معاهد التربية الإسلامية، ص ٣٠٣، ٣٠٤.

*** سعيد إسماعيل على: المرجع نفسه، ص ٣٠٤. محمد ماهر حمادة: المكتبات فى الإسلام، ص ١٣٤.

**** سعيد إسماعيل على: المرجع نفسه، ص ٣٠٦.

(٢) أحمد كمال الدين حلمى: السلاجقة فى التاريخ والحضارة، ص ٣٧٦.

(٣) منير الدين أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين، ص ١١.

يسألون ويناقشون، وكانت تتلاقى الأصوات المتصاعدة من الحلقات المختلفة فتحدث في المسجد شيئا من الضجيج يمنع الصلاة والعبادة من أن تؤدي على وجهها^(١). فضلا عن أن العلوم تطورت وأصبحت هناك مواد تستدعي دراستها كثيرا من الحوار والنقاش والجدل، ومثل هذه المواد تتنافى طبيعة تدريسها مع ما يجب أن يكون عليه رواد المساجد من هدوء وجلال^(٢). ومن ناحية أخرى كان لدى الدولة الرغبة في السيطرة على التعليم وتوجيهه للقضاء على البدع، كما كانت في حاجة إلى عدد من الموظفين والدعاة لذا فرضت على التعليم شروطا ومواصفات ثابتة تخص المناهج^(٣).

ويعتبر القرن الخامس الهجري فاتحة عصر جديد بالنسبة لنظام التعليم والمدارس في الإسلام^(٤)، وكان العصر السلجوقي هو عصر انطلاق الحركة المدرسية وأن السياسة التعليمية التي انتهجها السلاجقة كانت تتطلبها واقعية الظروف السياسية العامة وقتذاك، فاستهدف نظام الملك من سياسته في نشر التعليم، غاية تخدم مصالح الدولة السلجوقية خدمة ذات نتائج مفيدة لها^(٥). وكان ذلك العصر يروج بالأراء المختلفة والأفكار المتضاربة التي كان لها

(١) أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص ٩٦. رحيم كاظم محمد الهاشمي وعواطف محمد العربي شنتقارو: الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٥٢. سعد مرسى أحمد وسعيد إسماعيل: تاريخ التربية والتعليم، ص ١٧٣.

(٢) أحمد شلبي: المرجع نفسه، ص ٩٦. أمين مدني: الثقافة الإسلامية وحواضرها، ص ١١٠. محمد الحسيني عبد العزيز: الحياة العلمية في الدولة الإسلامية، ص ٣٥.

(٣) غازي رجب محمد: وظيفة العمارة الإسلامية استجابة الشكل إلى المضمون، ج١، ص ١٣٢، ١٣٣.

Antony Hutt and Leonard Harrow, Islamic Architecture Iran, vol.1, 1977, p20.

(٤) خالد عزب: التراث الحضاري والعماري، للمدن الإسلامية، ص ١١٩.

(٥) حسين أمين: تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٢٢٠، ٢٢١.

أثر كبير في حالة الصراع الفكري وتأجج حالة التشتت والانقسام التي عاشها المجتمع الإسلامي، ولعل ذلك ما دفع الوزير نظام الملك إلى إنشاء مدارسها التي نسبت إليه وعرفت بالنظامية^(١)، لمناهضة المذاهب المخالفة ورفع لواء الدفاع عن مذهب السنة، وكان نشأتها في الحقيقة مرتبطة بالدعوة المضادة للدعوة الشيعية^(٢). بيد أن تأسيس المدارس وإعطاء الجرايات للطلاب قوبل من علماء بلاد ما وراء النهر بعدم الرضا، ويؤكد شعورهم هذا ما روى عنهم "ولقد كوشف علماء ما وراء النهر بهذا الأمر ونطقوا به لما بلغهم بناء المدارس ببغداد أقاموا ماتم العلم وقالوا كان يشتغل به أرباب الهمم العلية والأنفس الذكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به فيأتون علماء يتتفع بهم

(١) الشيرازي: طبقات الفقهاء، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٠، ص١٩. ابن الفوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، ص٣. فؤاد عبد المعطي الصياد: دور الفرس في بناء الحضارة الإسلامية. جوانب من الصلات الثقافية بين مصر وإيران، القاهرة، ١٩٧٥، ص٩٢. مصطفى صدرى: شرح حال رجال مشاهير نامى ايران، ص٢٥٠.

Claud Field , Persian Literature, p323.Charles Wilkinson, Nishapur some early Islamic Building and their Decoration, New York , 1986, p98. Jorgen Bak Simonsen , The Mosque Sultan Shah and Great Mughal, Denmark,1996 , p54 .Pope, A Survey of Persian Art, vol.1,p89. Sourdel ,la civilization de L,Islam Classique, p102 .Sylvia Matheson, Persia an Archaeological Guide ,London ,1972, p181.

(٢) حسن الباشا: دراسات في تاريخ الدولة العباسية، القاهرة، ١٩٧٥م، ص١٣٦، ١٣٥. حسين مؤنس: تاريخ الفكر العربى، دار الرسالة للطباعة، القاهرة، ١٩٩٦، ص٢٤٤. عبد المجيد بدوى: التاريخ السياسى والفكرى، ص١٧٦. محمد السعيد جمال الدين: دولة الإسماعيلية فى إيران، ص٩٠.

Antony Hutt and Leonard Harrow , Islamic Architercture Iran ,p20. Frye, The Golden Age of Persia, p228.Sevim, Bosworth, The Seljuqs and the Khwarazmshahs History Civilization of Central Asian, vol.4,p159.

وبعلمهم، ولما جعل عليه أجرة تتطلبه النفوس الرذلة وتجعله مكسبا لحطام الدنيا، ويتزاحم عليه لا ليتحصل شرف العلم، بل لتحصيل المناصب الدنيوية السفلة الفانية، فيزول العلم برذالتهم ولا يشرفون بشرفه" (١).

وقد ذهب عدد غير قليل من المؤرخين والباحثين إلى أن نظام الملك هو أول من أسس المدارس في الإسلام في النصف الثاني من القرن الخامس الهجرى (٢) إلا أن الحقيقة خلاف ذلك، فاثبتت الدراسات وجود المدارس المستقلة قبل زمن نظام الملك (٣)، فأنشأ إبراهيم طمغاج خان (٤٤٤ - ٤٦٠هـ/١٠٥٢ - ١٠٦٧م) مدرسة في سمرقند (٤)، على أن نظام الملك يعد أول من رتب لطلاب المدارس والعاملين بها مرتبات وأرزاق شهرية وأمدتها بالخبر والورق، ولم تكن المدارس التي أنشئت قبل ذلك تخصص لطلبتها جرايات (٥) وسرعان ما أصبحت مدارس نظام الملك وما جعل بها من

(١) حسين أمين: المدرسة المستنصرية، ص ٢٤. سعيد إسماعيل على: معاهد التربية الإسلامية، ص ٣٥٧

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، مطبعة ادارة الوطن بمصر، ١٢٩٩هـ، ص ١٨٤. محمد مسفر الزهراني: نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص ١٩٠.

Clive Irving, Crossroads of civilization, p116. Laurence Lockhart, Persian Cities, p21.

Sheila Blair, Islamic Inscriptions, p81

(٣) أول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور إذ بنوا بها المدرسة البيهقية. المقرئى: المواعظ والاعتبار، ج ٤، ص ١٩٢.

Hillenbrand, Madrasahs Islamic Period, vol.2, p166

Asia, vol.4, p130. Davidovich, The Karakhanids History of civilization of central (٤)

Hillenbrand, OP.cit, p166. Svat Soucek, A History of Inner Asia, , p85.

(٥) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٨٥. الملقى: الشهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق على سامى النشار، دار الثقافة، ١٩٨٤، ص ٢١٩. المقرئى: المواعظ والاعتبار، ج ٤، ص ١٩٢. أحمد حامد الصراف: عمر الخيام، ص ٦٢. فليب حتى =

مساكن ورواتب للطلبة والأساتذة ثمودجا يحتذى به فى سائر المدارس التى أنشئت فى إقليم الصغد ولا سيما سمرقند، وصارت مراكز إشعاع للعقيدة الإسلامية^(١).

فى الواقع أن إنشاء نظام الملك للمدارس النظامية وما تبعه من انتشار المدارس فى المشرق الإسلامى، أثمر نتائج إيجابية حققت أهدافا مرجوه فى الدفاع عن الشريعة والعقيدة الإسلامية بوجه عام ضد الهجمات التى باشرها الشيعة.

فمن المدارس الكبرى التى اشتهرت بسمرقند مدرسة قثم بن العباس^(٢) أنشئت قبل سنة (٤٩١هـ/١٠٩٧م) وقام بالتدريس فيها محمد بن محمد بن أحمد بن الحسن بن عبد الله ابن العباس بن على بن أبى طالب العلوى، والد السيد الأشرف من أهل سمرقند، تفقه على والده وبرع فى الفقه، وأقام على

= وآخرون: تاريخ العرب، ج٢، ص٤٩٧. ناجى معروف: أصالة الحضارة العربية، ص٣٥٧.

Hillenbrand, Madrasahs Islamic Period, vol.2, p166.

(١) حسن الباشا: دراسات فى تاريخ الدولة العباسية، ص١٣٧.

(٢) قثم بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، وهو ابن عم رسول الله محمد ﷺ. استشهد بسمرقند سنة ٥٧هـ. البلاذرى: فتوح البلدان، ص٤٠٢. أبو جعفر الهاشمى البغدادى: كتاب المحبر رواية أبى سعيد الحسن بن الحسين السكرى، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص٤٥٥. خليفة بن خياط: كتاب الطبقات، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣، ص٤٠٤. الروحى: بلغة الظرفاء فى تاريخ الخلفاء، تحقيق عماد أحمد وآخرين، القاهرة، ٢٠٠٣، ص١٢٥. القلقشندى: قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق إبراهيم الإيبارى، دار الكتاب المصرى اللبنانى، ص١٥٥.

Edgar Knobloch, Turkestan, p152,153. Wilfrid Blunt, The Golden Road to Samarkand, p260.

التدريس ونشر العلم إلى أن مات سنة (٤٩١هـ/١٠٩٧م)^(١) وقام بالتدريس في هذه المدرسة أيضا أبو المعالي مسعود بن الحسن بن الحسين بن محمد الكشاني، وحدث وأملى بها، توفي سنة (٥٤٠هـ/١١٤٥م)^(٢).

ومدرسة رأس سكة حيان في رأس قنطرة غاتفر، قام بالتدريس فيها أبو يعقوب يوسف ابن بختيار بن محمد الساغري، توفي سنة (٥٠٢هـ/١١٠٨م)^(٣). ومدرسة رأس سكة عمور شيدت قبل سنة (٥٠٥هـ/١١١١م) وقام بالتدريس في هذه المدرسة أبو علي الحسين بن يوسف بن أبي يعقوب الخرقاني الإمام الخطيب، وكان فقيها فاضلا، سمع منه الإمام عمر ابن محمد النسفي، توفي سنة (٥٠٥هـ/١١١١م)^(٤).

كما كانت مدارس الشيعة الاثني عشرية ومراكزها التعليمية شأنها شأن مدارس السنة تنعم بإقبال الدارسين والمدرسين، ووجدت بسمرقند مدارس كبرى للشيعة منها مدرسة الإمامية التي أسسها محمد بن مسعود العياشي الذي عمل على نشر المذهب الشيعي فيما وراء النهر وخراسان^(٥).

أما عن خصائص هذه المدارس فإنها نحت نحو التخصص رغم شمولية التعليم في الجمهرة الكبرى من المدارس الإسلامية، إلا أن هذه المدارس شيدت عادة لمذهب معين من المذاهب الإسلامية، ولم يكن يسمح لأتباع المذاهب الاخرى بالالتحاق بها، واقتصر التدريس فيها على المذهب الذي

(١) القرشي: الجواهر المضية، ج٣، ص٣١٨، ٣١٧. ناجي معروف: علماء النظاميات، ص١٠٨، ١٠٩.

(٢) السمعاني: الأنساب، ج٥، ص٧٣.

(٣) السمعاني: الأنساب، ج٣، ص١٩٩.

(٤) السمعاني: المصدر نفسه، ج٢، ص٣٤٨. ناجي معروف: علماء النظاميات، ص٩٣.

(٥) رسول جعفریان: الشيعة في إيران دراسة تاريخية من البداية حتى القرن التاسع الهجري، تعريب على هاشم الأسدي، ١٤٢٠ق/١٣٧٨ش، ص٢٤١.

خصصت من أجله المدرسة، مع مراعاة حظر تدريس العلوم الفلسفية، وذلك لرغبة مؤسسى هذه المدارس فى اقتصارها على العلوم الدينية واللغوية، ابتغاء مرضاة الله^(١). أما ما يتعلق بتدريس الطب فازدهرت دراسته فى اليمارستانات التى هى أقرب للمستشفيات^(٢)، وأحيانا كان يدرس فى المدارس وذلك لإيمانهم بأن العلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان^(٣).

كان من ضمن المؤسسات التعليمية دور السنة التى أنشئت لدراسة الحديث مستقلة عن المدرسة التى أضحت تركز على الفقه، فكان الشيوخ يعقدون فيها مجالس الحديث والذكر حيث يجلس المولى أو المحدث على دكة كى تتسنى للجميع رؤيته^(٤)، ومن دور السنة المهمة بسمرقند الدار الجوزجانية^(٥) ومن أشهر العلماء الذين تولوا التحديث بها الإمام الفاضل ذو الفضل حمزة الساباطى المدرس المفتى بسمرقند فى محلة اميرنوند، توفى سنة (٤٣٧هـ/١٠٤٥م)^(٦). كما تولى التحديث بها القاضى أبو نصر أحمد بن محمد بن حميد ابن عبد الله بن الاشعث الكشانى كان إماما فاضلا، توفى سنة (٤٤٣هـ/١٠٥١م)^(٧). والشيخ الفقيه الإمام على بن الحسين بن إبراهيم

(١) ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص ٢٥٠.

(٢) هشام نشابى: المدينة الإسلامية، ص ٧٩، ٧٨.

(٣) ذبيح الله صفا: المرجع نفسه، جلد دوم، ص ٢٥٠.

(٤) إحسان ذنوب الثامرى: الحياة العلمية زمن السامانيين، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠١، ص ٥٩.

(٥) الدار الجوزجانية: دار منسوبة للأسرة الجوزجانية التى منها بعض مشايخ أبى جعفر الهنداوى استاذ أبى الليث السمرقندى الذى توفى فى القرن الرابع الهجرى، ومن المحتمل أن يكون أبو الليث درس فى تلك المدرسة. أبو الليث السمرقندى: خزنة الفقه، مج ١، ص ١٢.

(٦) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص ١٥٧.

(٧) السمعانى: الانساب، ج ٥، ص ٧٣.

ابن إسماعيل بن أبي بكر القنطري النسفي كتب عن أبيه وعن مشايخ نسف
ومشايخ سمرقند توفي (٤٤٤هـ / ١٠٥٢م) (١).

والشيخ الإمام الزاهد الخطيب أبو محمد عبد الجبار بن أحمد الداري،
توفي سنة (٤٤٨هـ / ١٠٥٦م) (٢). والشيخ الإمام أبو طاهر عثمان بن أبي
أحمد بن اسحاق بن أحمد الواعظ الصكاك الكشاني حدث واملأ في الدار
الجوزجانية سنة (٤٥٨هـ / ١٠٦٥م) (٣). وكذلك الإمام الحافظ الخطيب عبد
الجبار بن أبي طاهر المفتي بن علي بن أبي الأشعث بن موسى النحوي
السمرقندي كان يملأ الحديث في الدار الجوزجانية، توفي سنة
(٤٦٥هـ / ١٠٧٢م) (٤).

والإمام عبد الجبار بن الحسين بن محمد الباهلي الكشاني توفي سنة
(٤٩٠هـ / ١٠٩٦م) (٥). ونصر بن إبراهيم السلطان شمس الملوك صاحب ما
وراء النهر يتلقى تعليمه في تلك الدار ثم ألقى الحديث بها، توفي سنة
(٤٩٢هـ / ١٠٩٨م) (٦). والشيخ أبو المطهر عبد الرشيد بن أحمد بن طاهر بن
عوض بن علي بن القاهر الطاهري السمرقندي كتب الحديث بسمرقند، وكتب
أمالى الملك نصر إبراهيم بن طمغاج خان في الدار الجوزجانية. توفي سنة
حوالي (٤٩٣هـ / ١٠٩٩م) (٧).

كما كان محمد بن محمد بن الحسين المحدث عبد الكريم بن موسى بن

(١) النسفي: المصدر نفسه، ص ٥٧١.

(٢) النسفي: المصدر نفسه، ص ٤٠٢.

(٣) النسفي: المصدر نفسه، ص ٤٩٨.

(٤) النسفي: المصدر نفسه، ص ٤٠٣.

(٥) النسفي: المصدر نفسه، ص ٤٠٢.

(٦) الذهبي: تاريخ الاسلام، ج ٣٤، ص ١٧٣.

(٧) النسفي: المصدر نفسه، ص ٤٤٧.

الشيخ بن مجاهد العلامة أبو اليسر البزدوى النسفى شيخ الحنفية بما وراء
النهر، وكان يدرس فى الدار الجوزجانية ويملى فيها الحديث، توفى سنة
(٤٩٣هـ/١٠٩٩م)^(١). والإمام الأديب أبو محمد عبد الجليل بن عبد الموجود
ابن نصر اليدخكتى الصكاك من قرى فرغانة، كان من حلفاء الدار
الجوزجانية، توفى سنة (٤٩٨هـ/١١٠٤م)^(٢) والسيد الإمام أبو الحسن على
ابن حمزة ابن على بن حمزة بن الحسين بن الحسن بن زيد بن محمد بن
جعفر بن زيد بن على بن الحسين السمرقندى، كان من علماء الدار
الجوزجانية، وكانت داره بالقرب منها، توفى سنة (٥١٣هـ/١١١٩م)^(٣)
كذلك كان أحمد بن عبد الله بن يوسف بن الفضل الصبغى من أهل
سمرقند، إماما فقيها فاضلا، وكان معيدا فى الدار الجوزجانية وتوفى سنة
(٥٢٦هـ/١١٣١م)^(٤).

لاشك أن هذه المدارس ساعدت على نشر الثقافة فى أرجاء العالم
الإسلامى، ولعبت على اختلاف أنواعها دورا هاما فى تنمية وتقدم الحركة
الفكرية والعلمية فى إقليم الصغد، وساهمت فى إقامة الصرح العلمى الذى
تميزت به الحضارة الإسلامية خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، كما
أمدت أجهزة الدولة بالعناصر المتعلمة المثقفة والتى كان لانضمامها إلى جهاز
الدولة آثاره البعيدة على دقة التنظيم، علاوة على ذلك فإن مدارس مدن الصغد
أمدت المدارس الأخرى فى أنحاء العالم الإسلامى بعناصر مؤهلة من العلماء
والاساتذة الكبار. وكان أشهرهم أبو القاسم على بن المظفر بن حمزة بن زيد

(١) الذهبى: تاريخ الاسلام، ج٤، ص ١٦٣، ١٦٤.

(٢) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص ٣٩٧.

(٣) النسفى: المصدر نفسه، ص ٥٦١، ٥٦٢.

(٤) التيمى: الطبقات السنية، ج١، ص ٣٧٢. ناجى معروف: علماء النظاميات، ص ٩٧.

الحسينى الشريف العلوى الدبوسى (٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م)^(١)، استدعاه الوزير نظام الملك للتدريس بنظامية بغداد لبراعته فى الفقه والجدل^(٢). وكان نظام الملك دقيقا فى اختيار أساتذة المدارس النظامية بحيث كانوا أعلام عصرهم فى علوم الشريعة، وكان نظام الملك يختبر معلوماتهم خلال المناظرات التى كان يعقدها فى المناسبات المختلفة، ويلقى عليهم أسئلة، فإذا لمس فى أحدهم علما وذكاء عينه فى الحال، وإذا صدر الأمر بالتعيين سار المدرس إلى الجهة التى اختير لها^(٣).

وكان أبو الحسن على بن موجود بن الحسن الكشانى إماما فاضلا، ومناظرا فحلا، تولى التدريس بالمدرسة الخاقانية بمرو، توفى سنة (٥٥٧هـ/ ١١٦١م)^(٤). والشيخ حميد الدين السمرقندى كان من أشهر العلماء الذين تولوا التدريس بالمدرسة العذراوية بحارة الغرباء بدمشق^(٥)، كما كان أول من درس بالمدرسة المبطورية بجبل الصالحية بدمشق^(٦) وكان أيضا

(١) كان الشريف العلوى لابد أن يكون على المذهب السنى من الأصل أو تحول إلى المذهب السنى قبل أن يستدعى للتدريس فى النظامية لأنه لم يكن يسمح بالتدريس فيها لغير أهل السنة. عبد المجيد بدوى: التاريخ السياسى والفكرى للمذهب السنى، ص ١٨١.

(٢) الذهبى: المصدر نفسه، ج ٣٢، ص ٣٢. ابن الفوطى: مجمع الاداب، مج ٥، ص ١٨٤.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ١٣٦، ١٣٥. نظام الملك: سياست نامه، ص ٥. سليم نيسارى: تاريخ أدبيات إيران بعد از اسلام، ص ٥٠. عبد الهادى محمد رضا محبوبه: نظام الملك الحسن بن اسحق الطوسى كبير الوزراء فى الأمة الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٣٥٦.

(٤) السمعانى: الأنساب، ج ٥، ص ٧٤.

(٥) النعمى: المدارس فى تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسنى، ج ١، ١٩٨٨م. ص ٣٧٣، ٥٤٩.

(٦) النعمى: المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٠٤.

أول من درس بالمدرسة الزنجارية وتقع خارج باب تومار وباب السلامى بدمشق وظل بها إلى أن توفي سنة (٦٣٥هـ/١٢٣٧م)^(١). كان هؤلاء العلماء أشبه اليوم بنظام الاساتذة الزائرين فى الجامعات، مما يؤكد النهضة العلمية والثقافية التى تمتعت بها مدن الصغد خلال فترة الدراسة.

أما عن مناهج التعليم فى مدارس مدن الصغد، فإن التعليم فى هذه المدارس كان فى حقيقة الأمر امتداداً لحركة التعليم فى المساجد^(٢) لهذا ركز فى بدايته على العلوم الدينية ومن ثم استنفدت هذه العلوم طاقة النشاط فى المدارس، ولاشك أن هذا الاتجاه كان استجابة لروح العصر الذى أنشئت فيه^(٣)، وكان منهج التعليم الذى يسير بمقتضاه الأساتذة شاملاً لمجموعة العلوم الإسلامية كالقرآن الكريم والحديث ثم أصول الفقه والفقه وعلم الكلام ثم مجموع اللغة العربية كالنحو والصرف والبلاغة، علاوة على هذه المواد الدينية والأدبية كان يدرس أيضاً علم الحساب والطب، وكان تدريس العلوم الادبية ومقدمات علم الحساب المحتاج إليه فى الفقه أمراً شائعاً فى مدارس سمرقند. أما تدريس الطب فكان مكانه المستشفيات، ومع ذلك درس الطب فى قليل من المدارس، أما سائر العلوم العقلية فكانت مكروهة لدى علماء المسلمين يحرمون تدريسها، وكان أساتذة الفلسفة يعلمون تلاميذهم خارج المساجد والمدارس^(٤).

(١) النعمى: المصدر نفسه، ج١، ص ٥٢٦، ٥٢٧.

(٢) أحمد كمال الدين حلمى: السلاجقة فى التاريخ والحضارة، ص ٣٧٧. هشام نشاى: المدينة الإسلامية، ص ٧٩.

Hillenbrand, Madrasahs Islamic Period, vol.2, p166

(٣) أحمد شلبى: تاريخ التربية الإسلامية، ص ٩٨. حسين أمين: المدارس الإسلامية فى العصر العباسى وأثرها فى تطور التعليم، المؤرخ العربى، العدد ٦، بغداد، ص ٧.

(٤) ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص ٢٥٠. منير الدين أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين، ص ٥٠، ٥١.

Murray Thomas, The Islamic Revival and Indonesian Education Asian Survey, vol.28, no.9. 1988, p899

كانت مناهج الدراسة التي يسير بموجبها الطلبة تتدرج من السهل إلى الصعب، ومن البسيط إلى المركب، إذ تبتدئ بالعلوم الأساسية التي تعتمد على اللسان ومقوماته ثم تنتقل بالطالب إلى العلوم الانسانية المسموح بها، التي تعتمد على التفكير. وكانت حلقات الدرس منتظمة تعقد صباح كل يوم إلى قرب صلاة الظهر، حيث يتلقى فيها الطلبة دروسهم على أساتذتهم المتخصصين، ثم تستأنف في العصارى والأماسى قبيل صلاة المغرب وبعده^(١). وبالطبع كان لكل موضوع في المدرسة شيخ مختص بتدريسه، فكان هناك أستاذ للغة وأستاذ للتفسير وآخر للحديث، وكان المدرس يجلس على مكان عال وهو يرتدى الطيلسان، والطريقة المتبعة أن الطلاب يجلسون أمامه على شكل نصف حلقة. وكان مجال المناقشة مفتوحاً أمام الطلاب ليتمكن الطالب من فهم المسائل العلمية، وكانت للمناقشة بين الأستاذ وطلابه آداب خاصة تكفل للأستاذ وقاره وهيبته ومكانته، كما تحقق للطالب طريق الفهم والتعلم^(٢).

هكذا أخذ التدريس مسارا خاصا، فظهرت التخصصات العلمية، ووضع لكل قسم منهجه الخاص وكتبه المعينة ومدرسه المتخصصون^(٣). أما هيئة التدريس فكانت تتألف من الآتى:

* المدرسون: وهم الأساتذة المتبحرون في العلم^(٤). ومن ذاع صيته من المدرسين في سمرقند، محمد بن منصور بن مخلص أبو إسحاق النوقدى من قرى نسف، كان إماما زاهداً صائماً الدهر من أشهر مدرسين سمرقند، توفى

(١) عبد الهادى محمد رضا محبوبه: نظام الملك، ص ٣٥٩، ٣٦٠.

(٢) حسين أمين: تاريخ العراق الاقتصادى، ص ٢٢٩، ٢٣٠.

(٣) بهروز رفيعى: تعليم وترتيب در اسلام، ص ١١٦.

(٤) الحسين بن رشيق المالكى: لباب المحصول فى علم الأصول، تحقيق محمد غزالى عمر

جابى، ج١، الامارات، ٢٠٠١، ص ٤٥.

سنة (٤٣٤هـ/١٠٤٢م)^(١). ومن المدرسين البارزين على بن محمد بن حسين ابن المحدث البزدوى النسفى الزاهد صاحب التصانيف الجليلة، وكان إمام أصحاب أبى حنيفة ببلاد ما وراء النهر ويضرب به المثل فى حفظ المذهب، توفى سنة (٤٨٢هـ/١٠٨٩م)^(٢). كما يعد أبو اليسر محمد البزدوى قاضى سمرقند، من أشهر العلماء الذين قاموا بتدريس الفقه على المذهب الحنفى، توفى سنة (٤٩٣هـ/١٠٩٩م)^(٣) ومن أشهر المدرسين أيضاً الشيخ الإمام الزاهد أبو الحسن على ابن أبى سهل بن حمزة بن منصور الزامينى، توفى سنة (٤٩٤هـ/١١٠٠م)^(٤).

وحق على المدرس أن يحسن إلقاء الدرس وتفهيمة للحاضرين، وإن كانوا مبتدئين فلا يلقى عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات، بل يدرّبهم ويأخذهم شيئاً فشيئاً إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق، وإن كانوا منتهين فلا يلقى عليهم الأمور الواضحة بل يدخل بهم فى مشكلات الفقه ويخوض بهم عبّاه الزاخر^(٥).

✽ النائب: وهو المكلف بالقيام فى تدريس الموضوع نيابه عن المدرس إذا كان مشغولاً أو مريضاً أو لسد الشاغر فى فترة لا يوجد فيها المدرس^(٦).

-
- (١) السمعانى: الأنساب، ج٥، ص٥٣٨. علاء الدين السمرقندى: تحفة الفقهاء، تحقيق محمد زكى عبد البر، ج١، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٥٨، ص١٩. علاء الدين السمرقندى: ميزان الأصول فى نتائج العقول، تحقيق محمد زكى عبد البر، ط٢، القاهرة، ١٩٩٧م، ص١٧. القرشى: الجواهر المضيه، ج٣، ص٣٧٣.
- (٢) الذهبى: تاريخ الإسلام، ج٣٣، ص٩٣.
- (٣) البزدوى: كتاب أصول الدين، ص١٣.
- (٤) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص٥٥٦.
- (٥) السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، ص١٠٥، ١٠٦.
- (٦) عبد الهادى محمد رضا محبويه: نظام الملك، ص٣٥٧.

* المعيدون: وهم الذين يقومون بإعادة ما يلقيه المدرسون على الطلاب حتى يرسخ في أذهانهم^(١) وذكر السبكي " أن المعيد يجلس مع الطلاب لسماع المحاضرة، ولكن عليه قدر زائد على سماع الدرس من تفهيم بعض الطلبة، ونفعهم، وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة بعد انتهاء الشيخ من الدرس" (٢).

جدير بالذكر أن صفات المدرسين وأحوالهم وأخلاق المعيدين روعيت في مدارس سمرقند، وذلك لأن المدارس العظيمة وشهرة دور العلم ترجع إلى أحوال مدرسيها الأجلاء ومعيديها الفضلاء^(٣). وكان من الطبيعي أن يكون للعلماء والمعلمين نقابة تضم جماعتهم وتنظم مهمتهم، شأنهم في ذلك شأن بقية المهن، وكان عبء اختيار النقيب يقع على عاتق المدرسين، ولم تتدخل الدولة في شأنهم إلا إذا وقع خلاف بين الأعضاء، على أن تدخلها كان للتوفيق والإصلاح لا للأمر واستعمال النفوذ^(٤).

كان الوقف هو بؤرة النهضة العلمية والفكرية، حيث أسهم في إرساء دعائم ثقافية متنوعة من خلال تشييد المدارس وتعيين المدرسين فيها، والإنفاق على طلبة العلم والمدرسين، وشارك فيها قطاع عريض من المجتمع حكام وأمراء وأثرياء وعلماء^(٥). وكان الغالب على أهل المال والثروة بما وراء النهر

(١) الحسين بن رشيق المالكي: لباب الحصول في علم الأصول، ج١، ص٤٥. فليب حتى وآخرون: تاريخ العرب، ج٢، ص٤٩٨. يوسف محمود: الإنجازات العلمية في الحضارة الإسلامية، ص٨٢.

(٢) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص١٠٨.

(٣) الحسين بن رشيق المالكي: لباب الحصول في علم الأصول، ج١، ص٤٥.

(٤) أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص٩٨. عبد الخليم متصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب، دار المعارف، ١٩٨٠، ص٦٤.

(٥) الجويني: عتبة الكتبة، تصحيح محمد قزويني وعباس إقبال، ١٣٢٩، ص٨٧، ٨٥. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص٢٤٨. يحيى محمود ساعاتي: الوقف وبنية المكتبة العربية، السعودية، ١٩٨٨، ص١٦.

صرف أموالهم فى عمل المدارس^(١) وتبارى الحكام والوجهاء فى بناء المدارس لأهل العلم ووقف أموالهم عليها^(٢)، كما أوقفت أيضاً الكثير من الضياع والخوانيت والمنازل على المدارس^(٣).

ولم تكن المدارس مجرد أبنية تقام، أو مجموعة من الطلاب يتلقون العلوم فيها على المدرسين، بل كان أكثرها فى شكل مؤسسات علمية راقية لها نظمها الخاصة التى تدير عليها وتقاليدها التى ترعاها^(٤) والمؤكد أن معظم المدارس التى أنشئت فى مدن الصغد كانت تعتمد على الوقف كمورد أساسى ينفق منه على العملية التعليمية وإجراء الجرايات على أربابها من المدرسين والطلبة^(٥) وكان أبو حفص عمر بن أحمد بن محمد بن الحسن ابن شاهين بن الفارسى السمرقندى كثير الأوقاف بسمرقند، توفى سنة (٤٥٤هـ/١٠٦٢م)^(٦) وما من شك أن أوقاف المدارس إنما تبذل للدرس ولنيل الثواب الأخرى كصدقة جارية^(٧).

(١) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص ١٠٥١.

(٢) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص ٢٢٩. أمين مدنى: الثقافة الإسلامية وحواضرها، ص ١١٠.

Davidovich, The Karakhanids History of civilization of central Asia, vol.4, p140

(٣) أبو نصر السمرقندى: رسوم القضاة، تحقيق محمد جاسم الحديثى، بغداد، ١٩٨٥، ص ٤٢.

(٤) يحيى محمود ساعاتى: المرجع نفسه، ص ١٧، ١٦.

(٥) صلاح الدين خودابخش: حضارة الإسلام، ترجمة على الخربوطلى، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧١، ص ١٣٩. ناجى معروف: مدارس قبل النظامية، مطبعة المجمع العلمى العراقى ١٩٧٣، ص ١٨.

Frye, The Golden Age of Persia, p229. Jorgen Bak Simonsen , The Mosque Sultan Shah and Great Mughal, p54.

(٦) السمعانى: الأنساب، ج٣، ص ٣٩.

(٧) أبراوندى: راحة الصدور وآية السرور، ص ١١٠، ١١١.

هكذا يمكننا القول إن فترة حكم السلاجقة كانت فترة رواج للعلوم الدينية والأدبية، كما كانت فترة انطلاق للحركة المدرسية في الإسلام. وصفوة القول لعبت المدارس على اختلاف أنواعها في إقليم الصغد دوراً هاماً في تنمية الحركة الفكرية والعلمية في البلدان الإسلامية، وساهمت في إقامة الصرح العلمي الذي تميزت به الحضارة الإسلامية خلال فترة ازدهارها. ولا شك أن تراث المدرسة العلمية والأدبية يبدو واضحاً وجلياً فيما أنتجه مدرسوها من مصنفات قيمة أسدت إلى الثقافة خدمات جليلة أثرت بها مكتباتها، وقامت هذه المدارس بتخريج علماء أفاضل انتشروا في العالم الإسلامي وصاروا ينقلون ما تعلموه في تلك المدارس، كما ارتقى العديد من خريجي تلك المدارس الوظائف السامية في مختلف الأمصار الإسلامية.

والواقع أن إتاحة الفرصة للمسلمين أن يقبلوا في أي مدرسة في بلدان العالم الإسلامي كان له الأثر المحمود في توحيد الفكر الإسلامي وزيادة الترابط الإنساني مما أدى في النهاية إلى احتكاك الأفكار وانصهارها جميعاً في بوتقة العلم لتبرز أفكار "مدرسة وآراء مجدية في حقول العلم والأدب، ومن ثم ربطت هذه المدارس المسلمين برباط الثقافة"^(١).

٤ - الربط والخانقوات

الربط جمع رباط وهو في الأصل مصدر بمعنى ملازمة ثغر العدو^(٢) والرباط من الخيل الخمس فما فوقها^(٣)، وهو المكان الذي يربط فيه الخيل لغرض الجهاد وملاحقة العدو. وأخذ معنى الرباط من قوله تعالى "وَأَعِدُّوا

(١) حسين أمين: المدارس الإسلامية في العصر العباسي وأثرها في تطور التعليم، المؤرخ العربي، ص ١٠.

(٢) الزركشي: إعلام الساجد بأحكام المساجد، ص ٢٨.

(٣) المقرئزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٤، ص ٢٩٢.

لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمَنْ رِبَّاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ" (١)
وقوله عز وجل " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (٢) ومعناه جاهدوا، وقيل معناه واطبوا على مواقيت الصلاة.

يمكن القول بأن مفهوم الرباط لم يكن دائماً واحداً؛ ففي صدر الإسلام
كان الرباط يعنى القاعدة العسكرية التى كان المسلمون يقيمون بها على الحدود
لمراقبة الثغور، والدفاع عن التخوم (٣) مما يلى أرض العدو الذى يُخشى بوائقه
ضد المواقع الإسلامية، وجنود هذا الرباط يكونون عادة من المتطوعة للجهاد
فى سبيل الله إذا استنفروا للحرب دون أن يكون لهم أجر مقابيل مرابطتهم،
وإنما يتربصون للقتال ابتغاء وجه الله (٤).

لما كانت الأربطة على طرق المواصلات فجعلها ذلك مكاناً لحماية الطرق
من جانب، وملاذاً للعلماء والتجار وطلاب العلم يرتادونه فى تنقلاتهم بين
البلدان من جانب آخر (٥)، ومن ثم أحدثت هذه الأربطة حركة ثقافية بين
الجنود المرابطين حيث كان الجنود يتدارسون القرآن والحديث والفقه وغيرها من
العلوم، كما كان هناك أيضاً مجالس للإملاء، ورأى بعض العلماء ضرورة
الاختلاف إلى هذه الرباطات لاستكمال شخصيته.

على أن الرباط ما لبث أن تحول إلى مأوى للمتصوفين وذلك عندما

(١) الأنفال: آية ٦٠.

(٢) آل عمران: آية ٢٠٠.

(٣) شعبان عبد العزيز: الكتب والمكتبات، ص ٣٦٤. عبد السلام أحمد نظيف: دراسات فى
العمارة الإسلامية، ص ٣٦.

Derek Hill and Oleg Grabar, Islamic Architecture and its Decoration , London, 1967,

p34.

(٤) طه الولى: المساجد فى الإسلام، دار العلم، بيروت، ١٩٨٨م، ص ١٠٥.

(٥) عبد البارى محمد الطاهر: خراسان وما وراء النهر، ص ١٧٢.

توقف المد الإسلامي وبدأت قوة المسلمين فى التراجع وهيبتهم فى الانحسار والتقلص، فتغير مفهوم الرباط وأصبحت هذه الكلمة تعنى شيئاً قريباً من مفهوم الخانقاه أو الزاوية^(١)، وصار الرباط يطلق على المكان الذى يربط فيه الصوفية للعبادة والانقطاع إلى الله ومجاهدة النفس^(٢) ثم صار بعد ذلك مأوى للعاجزين والنساء المطلقات أو المهجورات^(٣).

هكذا أصبحت الربط تؤدى خدمات اجتماعية ودينية وثقافية كالوعظ والإقراء والتحديث والسماع والإفتاء ومنح الإجازات العلمية^(٤) واتخذها العلماء أماكن للدراسة والمطالعة والكتابة والتأليف، وساعدهم على ذلك أن الواقفين أنشأوا فيها الخزائن ووقفوا فيها الكتب وعينوا عليها من يقوم بصيانتها ومناولتها ليطلع عليها العلماء والفقهاء^(٥).

ولم تعد الربط تقتصر على العبادة والزهد، بل أصبحت أماكن للتأليف والتصنيف والقراءة والتثقيف، منها تؤخذ الإجازات وفيها تلقى المحاضرات، وألحقت بها مكتبات عامرة يرتادها المتصوفة فيدرسون ويتدارسون ويؤلفون ويصنفون^(٦). وصار المرابط بمعنى المجاهد فى الحرب أو مجاهد النفس بطاعة

(١) طه الولى: المساجد فى الإسلام، ص ١٠٦.

(٢) المقرئى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٤، ص ٢٩٣. حسن الباشا: الألقاب الإسلامية، ج ٢، ص ٤٦٧.

(٣) سعيد إسماعيل على: معاهد التربية الإسلامية، ص ٥٩٥. ناجى معروف: أصالة الحضارة العربية، ط ٣، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٥، ص ٤٦٤.

(٤) سعيد إسماعيل على: المرجع نفسه، ص ٥٩٦.

(٥) رحيم كاظم محمد الهاشمى وعواطف محمد العربى شنتقارو: الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٥٨. ناجى معروف: المرجع نفسه، ص ٤٦٤.

(٦) أحمد كمال الدين حلمى: السلاجقة فى التاريخ والحضارة، ص ٣٧٧. حسين أمين: تاريخ العراق الاقتصادى، ص ٢٣٩، ٢٤٠.

الله . وكان لكل رباط شيخ^(١) وخدام، أما الشيخ فهو الرئيس الأعلى وكان في الغالب يعين ممن اشتهر بالتصوف والزهد، ومن أهم واجباته الإشراف والسهر على راحة النزلاء فيه^(٢).

كان الغالب على أهل المال والثروة ببلاد ما وراء النهر صرف نفقاتهم وأموالهم على الرباطات ووقف الأوقاف على سبيل الجهاد ووجوه الخير، وكان بما وراء النهر زيادة على عشرة آلاف رباط^(٣). وبالإضافة إلى الرباطات التي أنشأتها الدولة وأهمها رباط الملك على طريق بخارى سمرقند، قام بتشييده شمس الملوك نصر بن إبراهيم طمغاج خان سلطان القره خانيون بسمرقند^(٤)، وجد الكثير من الأربطة الأهلية ومنها رباط المربعة الذي بناه الواعظ إسحاق بن إبراهيم بن جعفر بن داود بن يوسف بن جبلة بن الحسين ابن مفيد السمرقندي المتوفى سنة (٢٥٩هـ/٨٧٢م)^(٥). ورباط أبي أحمد الزاهد السمرقندي في قرية قطوان بسمرقند، نسبة إلى من قام بتشييده وتوفى نهاية القرن الرابع الهجري^(٦). ورباط خرقان بإحدى قرى سمرقند^(٧). ورباط دشت أو رباط الغزاه^(٨)، ورباط الرضراضة^(٩)، ورباط كاسورغ^(١٠)، ورباط

(١) ناجي معروف: مدارس قبل النظامية، ص ٨٢.

(٢) بدر محمد فهد: تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير، ص ٤١٧.

(٣) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج ٣، ص ١٠٥١.

(٤) Lambton, The Further Islamic Lands Islamic Society and civilization, the History

Cambridge, vol.2,1970,p717.Michal Biran , Ilk khand, Encyclopedia Iran- of Islam,

ica , vol. 12, p625.

(٥) ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان، ج ١، ط ٣، بيروت، ١٩٨٦، ص ٣٤٧.

(٦) السمعاني: الأنساب، ج ٢، ص ٣١٥.

(٧) النسفي: القند في ذكر علماء سمرقند، ص ٣٨٢.

(٨) النسفي: المصدر نفسه، ص ١٤١.

(٩) النسفي: المصدر نفسه، ص ٦٤.

(١٠) النسفي: المصدر نفسه، ص ٣٠٥.

نصر بن جابر بمحلة باب دستان^(١)، ورباط نوكمين^(٢). كما ارتبطت بعض الرباطات الجديدة بالمدن الجديدة التي بينها الأمراء أو يدخلونها فاتحين، كما ارتبط بناؤها بالمساجد التي تنشأ، ومن أمثلتها الجامع الذي شيد في مدينة أسبيجاب من مدن ما وراء النهر، وكان يلحق به أربعة رباطات هي، رباط السمرقنديين، ورباط البخاريين، ورباط النخشييين، ورباط فراتكين^(٣).

كان الرباط يعتمد اعتماداً كلياً على الوقف^(٤). وكان أبو الحسن أعين بن جعفر بن الأشعث السمرقندي شيخاً فاضلاً مكرماً للفضلاء له آثار جميلة ومنها أنه بنى رباطاً على طريق كش ووقف عليه الضياع، توفي سنة (٣٥٤هـ/٩٦٥م)^(٥).

هكذا كان للرباط دور "هام" في حركة التعليم في مدن الصغد حيث كان أماكن للدراسة وبصفة خاصة فيما يتعلق بالعلوم الأساسية، كما كان ملجأ للفقراء والصوفية والزهاد، علاوة على ذلك كان منازل للعلماء والطلاب الراحلين إلى بلاد ما وراء النهر ولاسيما سمرقند لطلب العلم أو نشره، ومكاناً لتعليم القرآن والحديث والوعظ.

ولعل من المفيد عرض أهم ما ورد عن دور الرباط في الحركة التعليمية في مدن الصغد، والعلماء الذين شاركوا في الحركة التعليمية وأهمهم أبو سهل سعيد بن عمر بن محمد بن إبراهيم بن أبي أحمد بن أحمد بن الفضل

(١) النسفي: المصدر نفسه، ص ٦٢٨.

(٢) النسفي: المصدر نفسه، ص ١٧٠.

(٣) بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ص ٢٩١. عبد الباري محمد الطاهر: خراسان وما وراء النهر، ص ١٧٢.

(٤) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص ٢٢٩. بدر محمد فهد: تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير، ص ٣٩٦. يحيى محمود ساعاتي: الوقف وبنية المكتبة العربية، ص ٢١.

(٥) السمعاني: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧.

الطار الصفار المحتسب الغزنوى، قدم سمرقند وأملى فى رباط المربع سنة (٤٢٩هـ/١٠٣٧م)^(١). فضلا عما كان للشيخ الإمام أبى الحسن على بن عثمان بن إسماعيل الخراط السمرقندى من مجالس إملاء فى رباط المربع، وتوفى سنة (٥١٠هـ/١١١٦م)^(٢). وكان للشيخ طاهر بن يونس بن على الفانى (٥١٩هـ/١١٢٥م) المقيم بسمرقند فى رباط بيت أبى الأشعث مجلس للإملاء^(٣) وكذلك كان للفقير مسعود بن منصور الأوشى الفرغانى (٥١٩هـ/١١٢٥م) الساكن سمرقند، مجالس إملاء فى رباط حمزة، وقال عمر النسفى: أن مسعود بن منصور الأوشى وأهله وولده ماتوا كلهم فى ليلة واحدة^(٤). كما كان للسيد الواعظ أبى الصمصام ذى الفقار بن محمد بن معيد الحسنى مجالس إملاء بسمرقند، وجلس للعادة فى رباط المربع وتوفى سنة (٥٣٦هـ/١١٤١م)^(٥).

هكذا ساهمت الربط مساهمة فعالة فى ازدهار الحركة الثقافية والصوفية فى إقليم الصغد، وكانت مكانا لتلقى العلوم الأساسية وللتأليف والتصنيف، كما كانت تحوى خزانة كتب قيمة. وعلاوة على ذلك كانت منازل للعلماء الرحالين من بلد إلى بلد فى طلب العلم أو نشره.

أما الخانقاه، فيقال لها أيضاً "الخانكاه"^(٦) يقول المقرئى: "الخوانك" حدثت فى الإسلام فى حدود الأربعمئة من سنى الهجرة، وجعلت لتخلى

(١) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص ٢٠٤.

(٢) النسفى: المصدر نفسه، ص ٥٦٤.

(٣) النسفى: المصدر نفسه، ص ٢٨٨.

(٤) الذهبي: المشتبه فى الرجال، ج ١، ص ٣٥. السمعانى: الأنساب، ج ١، ص ٢٢٨،

٢٢٩.

(٥) النسفى: المصدر نفسه، ص ١٥٨.

(٦) كلمة فارسية معناها بيت وقيل أصلها "خونقاه" أى الموضع الذى يأكل فيه الملك.

المقرئى: المواعظ والاعتبار، ج ٤، ص ٢٧١. عبد المنعم الحفنى: الموسوعة الصوفية،

ص ٣٦٩.

الصوفية فيها لعبادة الله تعالى^(١). ويقول ابن ممتى الخانقاه مؤسسة لأيواء الزاهدين والمتعبدين من المسلمين^(٢). كما يقول قاسم غنى: كانت الخانقاه فى القرن الخامس الهجرى كأديرة الرهبان محلاً لاستراحة المتجولين من الصوفية غالباً، وكانوا يستضيفون المسافرين فيها^(٣).

إذن فالخانقاه بيت الصوفية التى يعيش فيها المتصوفون الذين حسبوا أنفسهم على التعب دون أن يزاولوا أى عمل من شئون الدنيا، معتمدين على ما يوقفه عليهم أهل اليسار مما يكفيهم لمطعمهم وملبسهم وغير ذلك من أغراض الحياة الدنيا التى لا بد منها لمعاشهم وحياتهم اليومية^(٤).

انتشرت الخانقاوات فى جميع أرجاء العالم الإسلامى ابتداءً من القرن الخامس الهجرى، ووضعوا فيها نظاماً معيناً للحياة، وكان من التقاليد المتبعة فى هذه الخانقاوات إقامة حلقات السماع التى يردد فيها القوالون أشعاراً فى الغزل يفسرونها تفسيراً صوفياً^(٥) وكان للخانقاوات نظام متدرج خاص على حسب تقواهم، على رأسه شيخ يسمى قطب أو شيخ الشيوخ أو شيخ السجادة دليل على تقواه، يأتى بعده المریدون والإخوان كما يوجد الخدم^(٦).

(١) المقرئزى: المواعظ والاعتبار، ج٤، ص٢٧١. الموسوى: روضات الجنات، ص٣٢.

يحيى محمود سابعاتى: الوقف وبنية المكتبة العربية، ص١٠٧.

(٢) ابن ممتى: كتاب قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سورىال عطية، مطبعة مصر، ١٩٤٣، ص٤٥٤.

(٣) قاسم غنى: تاريخ التصوف فى الإسلام، ص٦٩٩.

(٤) طه الولى: المساجد فى الإسلام، ص٨٩.

(٥) إسعاد عبد الهادى قنديل: فنون الشعر الفارسى، ص٥٧.

(٦) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص١٨٦، ١٨٧. محمد السعيد جمال

الدين: أعلام الشعر الفارسى فى عصور الازدهار، ط٢، دار الهداية للطباعة، ١٩٩٩، ص١١.

كانت الخانقاوات - إلى كونها مؤسسات صوفية - معاهد علمية تربية^(١)، يدرس فيها العلوم الأساسية كالحديث والشريعة والفقه والتفسير، وإلى جانب هذه العلوم درس فيها العلوم التطبيقية المختلفة، وآوت الصوفية والمجاهدين^(٢). ويمكن تقسيم التعليم والتربية في الخانقاوات إلى قسمين بصورة مجملية: أحدهما التعاليم الشفهية، وكانت تشتمل على النصائح والمواعظ التي يلقيها الشيخ على الطلاب، ومجالس الوعظ والتذكير التي كانت من السنن الجارية في الخانقاوات الصوفية. وثانيهما التعاليم العملية التي هي رياضيات مختلفة مثل الصلاة والصوم والذكر والأعتكاف^(٣).

انتشرت الخانقاوات في سمرقند وخدمت الحركة العلمية ومنها تلك الخانقاه التي بناها محمد بن لقمان بن نصر بن أحمد بن أسد بن سامان أبو المظفر السمرقندي في سكة حماد، بناها لطلبة العلم وأنفق عليها أموالاً كثيرة، ووقف عليها وعلى من يسكنها أوقافاً كثيرة، توفي سنة (٣٢٠هـ/٩٣٢م)^(٤). وكانت معظم الخانقاوات في سمرقند تجاور الجوامع، فكان الشيخ أبو القاسم علي بن أحمد بن يوسف السمرقندي يحدث في مسجده قبالة الخانقاه في نهر القصارين، توفي سنة (٤٥٤هـ/١٠٦٢م)^(٥)، كما وجدت الزوايا^(٦) في سمرقند ومنها زاوية قثم، تلك الزاوية التي وجدت

(١) حسين مجيب المصري: أثر الفرس في حضارة الإسلام، دراسات في الحضارة الإسلامية، مج ١، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١٩٧. ذبيح الله صفا: تاريخ ادبيات در ايران، جلد دوم، ص ٢٥٠.

(٢) عبد الرحيم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، ص ١٥٧.

(٣) قاسم غنى: تاريخ التصوف في الإسلام، ص ٧٠١، ٧٠٠.

(٤) ابن نقطه: تكملة الإكمال، تحقيق عبد القيوم عبد رب النبي، ج ٣، مكة، ١٩٨٩م، ص ١٢٢.

(٥) النسفى: القند في ذكر علماء سمرقند، ص ٥٦٠.

(٦) الأصل في الزاوية أنها ناحية في المسجد يجلس عندها أحد العلماء عند إلقاء دروسه =

على قبر قثم بن العباس والتي بنيت بأموال النذور، وبالزاوية مساكن يسكنها الوارد والصادر. زارها ابن بطوطة في رحلته إلى سمرقند^(١).

ومما يؤسف له أن الخانقاوات انتهت كمنامة للفقراء والمحتاجين وال دراويش الذين يتعبدون ولا يعملون مما يتنافى مع الدعوة، وصار دورها سلبيا بعد أن كانت من المؤسسات الفعالة في المجتمع الإسلامي^(٢).

خلاصة القول كانت الربط والخانقاوات تعمل جنبا إلى جنب مع المدارس على رعاية شؤون الطلبة وإيوائهم، والملاحظ أن أغلب الربط والخانقاوات كانت تجاور المدارس والجوامع وبالتالي فهي تشبه إلى حد كبير مساكن الطلاب، ولم يكن بعضها يخلو من علماء يسكنون فيها مع طلابهم، علاوة على احتوائها على خزائن للكتب يلجأ إليها الطلاب للبحث والمطالعة^(٣).

٥ - المكتبات:

كانت المكتبات من المؤسسات التعليمية في مدن الصغد، وكان لها أكبر الأثر في إثراء الفكر وتقديم العلوم، وساهمت مساهمة فعالة في توسيع نطاق

=على الناس، وكان لكل عالم مكان خاص به يداوم على الحضور فيه، وكان الناس يطلقون على هذا المكان اسم الزاوية، وإلى جانب زوايا العلماء والمدرسين فإن العالم الإسلامي عرف نوعا آخر من الزوايا التي يتخذها الطرق الصوفية مركزا لهم يتلاقون فيها مع مريدهم والراغبين في سلوك مسلكهم. ثم ما لبثت الزاوية أن تحولت عن مهمتها العلمية وأصبحت مركزا لأصحاب الطرق الصوفية. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص ٢٥١. طه الولي: المساجد في الإسلام، ص ٩١، ٩٢.

(١) حسين مؤنس: ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠، ص ١٥١.

(٢) عبد الرحيم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، ص ١٥٧.

(٣) يحيى محمود ساعاتي: الوقف وبنية المكتبة العربية، ص ١٠٨.

الحضارة الإسلامية وتغذيتها وترقيتها، وكانت دائما ملتقى العلماء وعشاق المعرفة وميدانا للمناظرات والمطارحات العلمية، وتعتبر المكتبات بمحتوياتها الدعائم الأساسية التي تشاد عليها صروح العلم والثقافة والمعرفة والنيابغ الفياضة التي تغذى تقدم الأمم العلمى والحضارى بماء الحياة والبقاء^(١).

ويعد انتشار المكتبات وتنوعها وعدد الكتب ونسبتها إلى القراء من أعظم المعايير والمقاييس المستعملة فى الوقت الحاضر وأكثرها دقة للدلالة على رقى الأمم والشعوب ورسوخ قدمها فى مضممار الحضارة^(٢). فالمكتبات الإسلامية بهذا المعنى مرآة تنعكس فيها حياة المسلمين وتظهر فيها هذه الحياة واضحة صافية مشرقة^(٣).

ظهرت المكتبات وتطورت فى الصغد نتيجة لاختراع الورق الذى يعد من أكبر النعم التى أسداها المسلمون بسمرقند إلى العالم^(٤)، وكذلك لانتشار حركة التدوين والترجمة والتأليف وانتشار الوراقين والنساخ^(٥)، فشغف المسلمون بالقراءة ومطالعة الكتب واقتنائها. وقال الشاعر فى هذا الصدد:

نعم الأئيس إذا خلوت كتاب تلهو به إن خانك الأحباب
لا مفشيا سراً إذا استودعته وتفاد منه حكمة وصواب

(١) محمد ماهر حمادة: المكتبات فى الإسلام، ص٧.

(٢) عبد الستار الخلوچى: دراسات فى الكتب، ص٢٣. محمد ماهر حمادة: علم المكتبات والمعلومات، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦، ص٥.

(٣) محمد ماهر حمادة: المكتبات فى الإسلام، ص٢٤.

(٤) Annemarie Schimmel, Calligraphy and Islamic Culture, p14. David Roxburch, On the Trans Mission and Reconstruction of Arabic Calligraphy Ibn al Bawwaband History , Studia Islamic , vol, 96, 2004,p41. Vladimir Minorsky ,The Turks Iran and the Caucasus in the Middle Ages , p282

(٦٥) رحيم كاظم محمد الهاشمى وعواطف شنقارو: الحضارة العربية الإسلامية، ص١٥٩.

وعبر المسلمون عن هذا الحب بتكوين المكتبات الشخصية والاحتفاء بها والمبالغة فى العناية بها والبكاء المر لفراقها وفقدانها^(١)، مما يؤكد وعى العلماء وإدراكهم بأن الكتاب هو عنوان الفكر ودليله وأداة ضرورية فى العملية التعليمية لاغنى عنه للمعلم والمتعلم^(٢).

فلاشك أن ازدهار الفكر الإسلامى فى مدن الصغد كان يرتبط بحرص العلماء على اقتناء الكتب، وتكوين المكتبات الخاصة فى البيوت التى تضم مئات بل آلاف المجلدات، ليقضوا أوقاتهم بين الكتب، ويشتغلون بالاطلاع فيها والاستفادة منها^(٣). كما اهتم الأثرياء والعلماء فى سمرقند بإقامة المكتبات العامة والخاصة لمحبي العلم وطلابه، وكانوا يتباهون بما يجمعون فيها من كتب منسوخة، وينفقون عليها ببذخ شديد لتنميتها وتضمينها بالمخطوطات التى لا توجد فى أى مدينة سواها^(٤)؛ وذلك لتسهيل المطالعة وتيسيرها للراغبين وبخاصة غير القادرين منهم على اقتناء الكتب بسبب غلائها وندرتها آنذاك^(٥).

ولما اتسع أفق المسلمين العقلى وازدهر تقدمهم الحضارى وتنوعت اهتماماتهم فى سمرقند، زاد بنفس النسبة عدد المكتبات من أجلها، فوجدت بها معظم أنواع المكتبات: المكتبات العامة المفتوحة للجمهور على اختلاف أنواعه وثقافته^(٦) وكان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على المساجد^(٧)، أو على

(١) شعبان عبد العزيز: الكتب والمكتبات، ص ٢٦٦.

(٢) يحيى محمود ساعاتى: الوقف وبنية المكتبة العربية، ص ٧٦.

(٣) عصام الدين عبد الرؤوف الفقى: تاريخ الفكر الإسلامى، ص ١٩٠.

(٤) خالد عزب: التراث الحضارى والمعمارى للمدن الإسلامية، ص ١٢٨.

(٥) رحيم كاظم محمد الهاشمى وعواطف شقارو: الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٥٩.

ناجى معروف: أصالة الحضارة العربية، ص ٤٥٦.

(٦) محمد ماهر حمادة: المكتبات فى الإسلام، ص ٨٢.

(٧) آدم متز: الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٣٢٢. سعيد أحمد حسن: أنواع المكتبات فى =

المدن التي سكنوها وأقاموا بها^(١)، وارتبط ظهور المكتبات العامة وانتشارها بمبدأ الوقف. والوقف^(٢) هو الطريق الرئيسي في تكوين النواة في أية مكتبة، ذلك أن الواقفين تعودوا أساسا على أن يوقفوا مجموعات كاملة، وتنمو هذه المجموعات بعد ذلك بطرق أخرى كالنسخ، ولا تغفل الإهداء كمصدر هام من مصادر تزويد المكتبة الإسلامية^(٣).

أدرك كافة الواقفين للمدارس والربط والخانقاوات وحلقات الدرس في المساجد أهمية الكتاب في العملية التعليمية، وأن الاقتصار على تشييد الأبنية وتوفير جهاز للتدريس غير كاف، فاهتموا بوقف الكتب عليها لتكون وسيلة ميسرة للتحصيل والمراجعة، توفر مادة علمية يستند عليها المعلم والمتعلم في وقت واحد، فأصبح من المعتاد وجود مكتبة في كل مدرسة أو جامع أو رباط أو خانقاه وفتت على طلبة العلم وغيرهم^(٤).

انتشرت المكتبات الوقفية في أرجاء العالم الإسلامي منذ القرن الرابع الهجري لدرجة أنه قلما وجدت مدينة تخلو من كتب موقوفة، وأصبحت هذه المكتبات قبلة لطلاب العلم تعينهم على التزود بكل جديد، وتوفر لهم فرص مواكبة الأفكار والآراء المدونة لمؤلفين من أصقاع العالم الإسلامي^(٥).

=العالمين العربي والإسلامي، ص ٧٩. عبد الستار الحلوجي: دراسات في الكتب، ص ٢٤. عبد النعيم محمد حسنين: دولة السلاجقة، ص ١٧٢. عمر أحمد غنام: المؤسسات التربوية، ص ١٦٩

- (١) عبد الستار الحلوجي: المرجع نفسه، ص ٢٢.
- (٢) وقف الكتب معناه حبس كتب بذاتها على مكتبة معينة أو على طائفة معينة لا يجوز التصرف فيها بحال من الأحوال إلا في الغرض المحدد له. شعبان عبد العزيز: المرجع نفسه، ص ٣٠٩.
- (٣) شعبان عبد العزيز: الكتب والمكتبات، ص ٣٩.
- (٤) يحيى محمود ساعتى: الوقف وبنية المكتبة العربية، ص ٢٢.
- (٥) ذبيح الله صفا: تاريخ ادبيات در ايران، ص ٢٥٢. يحيى محمود ساعتى: المرجع نفسه،

المكتبات الخاصة: وهي المكتبات التي أنشأها العلماء الذين لهم القدرة على شراء واقتناء الكتب في بيوتهم^(١)، ورغم أن هذه المكتبات تخصص أفراداً معينين فإنهم حرصوا على أن تكون للنفع العام ولخدمة طلاب العلم^(٢)، وهذا النوع من المكتبات كان كثيراً جداً وواسع الانتشار في سمرقند، إذ كان من الصعب أن تجد عالماً أو أديباً دون أن تكون له مكتبة يرجع إليها في دراسته^(٣) ومن هذه المكتبات، مكتبة أحمد بن عمر بن محمد بن أحمد بن علي بن لقمان أبي الليث بن شيخ الإسلام أبي حفص النسفي السمرقندي المعروف بالمجد المتوفى سنة (٥٥٢هـ/١١٥٧م)، كان يعير الكتب والأجزاء للسمعاني عندما كان بسمرقند سنة (٥٤٩هـ/١١٥٤م)^(٤).

وهذا مما يرجح وجود الإعارة الخارجية في سمرقند في ذلك الوقت، بيد أنها لم تكن مطلقة، بل وضعت عليها قيود لتنظيم العمل وحسن سيره، وكثيراً ما كان يحدد وقت للمستعير بحيث يلزمه رد الكتاب دون تجاوز هذا الوقت^(٥)، وكثيراً ما كان يطلب من المستعير أن يدفع ضماناً^(٦) ولكن كان يعفى العلماء وأفاضل الناس من دفع ذلك الضمان، كما حدث مع السمعاني. وفي هذا الصدد يقول الشاعر:

(١) سعيد أحمد حسن: أنواع المكتبات في العالمين العربي والإسلامي، ص ٨.

(٢) رحيم كاظم محمد الهاشمي وعواطف شنقارو: الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٦٢.

(٣) أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص ١٨٠، ١٧٩. سعد مرسى أحمد وسعيد إسماعيل علي: تاريخ التربية والتعليم، ص ١٧٧. عمر أحمد غنام: المؤسسات التربوية، ص ١٧٠.

(٤) تقى الدين التيمي: الطبقات السنية، ج ١، ص ٤١٦. القرشي: الجواهر المضية، ج ١، ص ٢٢٦، ٢٢٧.

(٥) أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص ١٣٦.

(٦) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص ١١١.

أيها المستعير منى كتاباً أرض لى منه ما لنفسك ترضى^(١)

وكان للتعامل مع الكتب أداب"، فيقول ابن جماعة: "ولا يجعل الكتاب خزانة للكراريس أو غيرها أو مخدة أو مروحة، ولا مكبسا ولا مسندا ولا متكأ. وعن إعارة الكتب فيقول " وإعارة الكتب للطلبة والمشيخة أمر قد استحسنة الأولون والآخرون لما فيه من نشر العلم، وإفادة الناس عامة، حتى عد من صفات العلماء المحمودة. ومن آداب التعامل مع الكتب عند شرائها أو استعارتها أو إعارتها أن يتفقد المشتري أو المستعير أو مالكةا بأن يتعهد أوله وآخره ووسطه وترتيب أبوابه وكراريسه ويصفح أوراقه، ولعل من الأعمال الحسنة التى كان يقوم بها بعض العلماء وقف الكتب رجاء الأجر، وللمحافظة عليها من التلف"^(٢).

يغلب الظن أن المكتبة أول الأمر كانت جزءاً غير مستقل عن المؤسسة نفسها كما هو الحال فى مكتبات الجوامع والمدارس والربط، فهذه كانت ملحقة بالمؤسسة التى وجدت من أجل خدمتها، أما المكتبات الكبرى فكان لها بناء مستقل خاص بها^(٣)، فى أبنية جميلة لتستقبل جمهور العلماء والباحثين، وكان بها حجرات متعددة تربط بينها أروقة فسيحة وثبتت الرفوف بجوار الجدران لتوضع عليها الكتب، وخصصت الأروقة للاطلاع وبعض الحجرات للنسخ، والبعض للاجتماعات، وأثت هذه المكتبات بأثاث فخم وفرشت أرضها بالبسط والحصر حيث كان يجلس القراء^(٤).

(١) ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، فى آدب العالم والمتعلم، تحقيق عبد السلام عمر على، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص ٢٤٣. أحمد شلى: المرجع نفسه، ص ١٣٧.

(٢) ابن جماعة: المصدر نفسه، ص ٢٤٦. أبو عبد الله محمد سعيد بن رسلان: آداب طالب العلم، ص ٨٦، ٨٧.

(٣) شعبان عبد العزيز: الكتب والمكتبات، ص ٣٧١. محمد ماهر حمادة: المكتبات فى الإسلام، ص ١٤٨، ١٤٩.

(٤) أحمد شلى: المرجع نفسه، ص ١٢٩. سعد مرسى أحمد و سعيد إسماعيل على: تاريخ=

وكان يعمل بالمكتبات العامة موظفون يرأسهم الخازن، وهو أمين المكتبة، وكان من أصحاب العلم والمكانة، والمترجمون والنساخ، والمجلدون، والمناولون؛ وهم الذين يرشدون القراء إلى موضع الكتب على الرفوف أو إحضار الكتب لهم من أمكتتها إلى حجرات المطالعة^(١).

وكان للحسن بن أحمد السمرقندي (ت بعد ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م) حجرة في نظامية نيسابور يسكنها، وكانت مملوءة بالأجزاء وهو قاعد وسطها، وكان يعتمد عليه في خزانة الكتب الموضوعة في المدرسة النظامية، وهو المسئول عن صيانتها، وكان يحضرها كل يوم من الظهر إلى العصر ويفتح باب الخزانة ويحضرها المستفيدون^(٢).

حقًا لم تكن المكتبات في إقليم الصغد لمجرد الزينة أو للتباهي والتفاخر أو لقطع الوقت وترجية الفراغ أو إرضاء لهواية جمع الكتب، بل كانت لغاية أسمى من ذلك بكثير، فكانت مكانا لتثقيف الشعب ككل ومكانا للبحث والدرس والتأليف والتمحيص بشكل خاص، إن النشاط الهائل الذي أظهره علماء الإسلام وادباؤه عائد بالدرجة الأولى إلى حسن استخدامهم المواد التي توفرت لديهم في مكتباتهم^(٣).

=التربية والتعليم، ص ١٧٦. سعيد أحمد حسن: أنواع المكتبات في العالمين العربي والإسلامي، ص ٥٤.

(١) بهروز رفيعي: تعليم وترتيب در اسلام، ص ١١٤. سعد مرسى أحمد و سعيد إسماعيل على: تاريخ التربية والتعليم، ص ١٧٦. شعبان عبد العزيز: الكتب والمكتبات، ص ٣٧٦.

(٢) ناجي معروف: مدارس قبل النظامية، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج ٢٢، ١٩٧٣، ص ١١٧.

(٣) محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام، ص ١٩٥.

خلاصة القول كانت المكتبات فى سمرقند شعلة وضائة وبراسا من نور يهتدى به العلماء وطلاب العلم إبان ازدهار الحضارة الإسلامية، فالمكتبات تعكس فى تاريخها حياة المجتمع وهى فى ذات الوقت نتاج هذا المجتمع وثمره حياته. وتمتع العلماء فى مدن الصغد خلال العصر السلجوقى بسعة اطلاعهم، وتشهد مؤلفاتهم ومصنفاتهم بالنهضة الثقافية التى تجلت آنذاك، وما عمرت به المكتبات من تلك المصنفات فى جميع فروع العلم تردد أصداء علمهم وفصاحتهم. وتعد المكتبات من هذا المنطلق من أهم المؤسسات الثقافية التى تعين على نشر المعرفة والارتقاء بمستوى الثقافة فى أرجاء العالم الإسلامى. هكذا ارتبطت حركة الثقافة فى مدن الصغد بالمكتبات.

جدير بالذكر أن مكتبات مدن الصغد دمرت عندما تعرضت للغزو المغولى سنة (٦١٧هـ / ١٢٢٠م)، وكان الموت والدمار يحل بكل مكان تطؤه أقدامهم، ولما دخلوا سمرقند كانت مدينة مزدهرة، وعندما تركوها تركوها أنقاضاً لا حياة فيها، سويت بالأرض، ولا شك أن نصيب مكتباتها من الدمار والحراب كان نصيباً موفوراً^(١). وكان تدمير المكتبات الإسلامية ونهبها على أيدي المغول نهاية مرحلة حضارية حملت فيها الأمة العربية مشعل الحضارة ومضت تضىء به للندى كلها طريق العلم والمعرفة، وكتيجة طبيعية

(١) القرمانى: أخبار الدول وأثار الأول فى التاريخ، ص٢٨٦. حسن مشحون: تاريخ موسيقى ايران، تهران، ١٣٧٣، ص١٦٩. فيتالى نومكين: سمرقند، ص١٥. محمد كرد على: الإسلام والحضارة العربية، ج١، ص٣٢١. محمد ماهر حمادة: المكتبات فى الإسلام، ص٢٠٤.

Beatrice Manz, Central Asia in Historical Perspective, P28. Bietrich Brandenburg , Samarkand , p16 . Donald Wilber, The Architecture of Islamic Iran the Ilkhanid Period ,P3. Gavin Hambly with Alexandre Bennigsen, Central Asia,p96. John Lawton, Travel to Landmarks Samarkand and Bukhara, p42.

لتلك العاصفة التي اجتاحت الدولة الإسلامية من الشرق آوت المكتبات إلى المساجد والبيوت وتقلص دورها الحضارى وأصبحت مجرد مستودعات يتجمع فيها ما سلم من كتب التراث^(١).

وصفوة القول: تضافرت المؤسسات التعليمية من كتاتيب ومساجد ومدارس وربط وخانقاوات ومكتبات على بناء صرح الحياة العلمية، وكانت نتائجه عظمة فى إثراء الحياة الثقافية فى إقليم الصغد خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين وإيجاد طبقة من المثقفين على درجة كبيرة من النضج والتفوق العلمى وزادت مصنفاتهم ومؤلفاتهم بشكل لم يكن له مثيل من قبل.

(١) عبد الستار الحلوجى: دراسات فى الكتب والمكتبات، ص ٢٥.